الفصل الثانى

تأصيل علم الجغرافيا

obeikandl.com

obeikandl.com

الظواهر الجغرافية فى القرآن الكريم

تمهيد

القرآن الكريم كتاب عقائد وشرائع وأخلاق، لا كتاب جغرافيا ولا تاريخ ولا فلك ولا فيزياء ولا كيمياء، لكنه تحدث عن ظواهر جغرافية واجتماعية وفلكية وفيزيائية، لا لذاتها، ولكن لدلالتها على عظمة خالقها – عز وجل –.

وحث القرآن الكريم المسلمين على النظر فى الظواهر الكونية للعظة والاعتبار والمعرفة والعلم. ولهذا وجدنا الرواد الكبار فى علوم الجغرافيا يبدأون مؤلفاتهم بآيات من كتاب الله تحث المسلمين على البحث فيها والاتعاظ بها. فهذا "ابن رسته" يبدأ "الأعلاق النفيسة" بقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وقوله تعالى: ﴿ **وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [الأنعام: ٩٦] وآيات أخرى عديدة شغلت صفحتى ١ و ٢. ومن هذه الآيات انطلق فى بحثه الجغرافى، وقرر أن الأرض كروية[١]. وهذا "ياقوت الحموى" يبدأ كما بدأ ابن رسته بآيات قرآنية، رأى أنها تفرض عليه النهوض بتأليف كتابه الموسوعى "معجم البلدان"[٢].

القرآن يحث على النظر

وفى القرآن الكريم آيات عديدة تتحدث عن الظاهرات الجغرافية، وتربط بينها، وتذكر السنن الكونية – أو القوانين الجغرافية – الضابطة لها. وهذه الآيات تشكل الأصول القرآنية للجغرافيا، التى يحرضنا القرآن الكريم على التفكر فيها.

١– قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**

---

(١) الأعلاق النفيسة؛ ص ٦، ٧.
(٢) ص ٧.

وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فالإنسان، وهو الكائن العاقل، إذا فكر فى هذه الظواهر والموجودات على ظهر الأرض، وما بينها من ارتباطات سَبَبِيَّة، لا بد أن يفوز بعلم جغرافى ناضج، وقبل هذا، لا بد أن يزداد إيماناً بالله تعالى ورحمته العظمى بخلقه.

٢- وقوله تعالى: ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٧] وهذه ظواهر جغرافية وفلكية وبيولوجية مدهشة تحث العقل على التفكير فيها ودراستها وفهمها والاستفادة من ذلك. وهى بذلك تؤسس للعلوم الفلكية والجغرافية والحيوية، وتعمق الإيمان بالخالق المدبر جلَّ شأنه.

٣- وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف: ٥٤]

هاهنا يذكرنا ربنا - عز وجل - بأنه هو خالق السماوات والأرض، وهو الذى نظم الزمان فى تتابع بين الليل والنهار، وهو الذى سخر الشمس والقمر والنجوم لصالح خلقه، يستفيدون منها دون مقابل من أى نوع. فهذا هو معنى التسخير.

٤- وقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]

أجل، هذه كلها آيات تشهد بعظمة الخالق وروعة تدبيره. وعلينا نحن عباد الله أن نفكر فيها لننتفع بها على أحسن وجه، وندعم إيماننا بديننا، ونفوز بسعادة الدنيا والآخرة. والحديث فى هذه الآية الكريمة عن الأرض وامتدادها، وما على سطحها من

الجبال والأنهار، والثمرات، والإشارة إلى الحقيقة الحيوية الكبرى، ألا وهى: الزوجية فى النبات، ثم تعاقب الليل والنهار. وكل هذه الظاهرات والحقائق تقع ضمن حقل الدراسات الجغرافية.

ونستطيع أن نورد المزيد من مثل هذه الآيات البينات التى تتحدث عن الأرض والسماء، والأنهار والسحاب، والجبال والوديان، والزروع والثمار وغير ذلك من الأشياء التى تقع ضمن اختصاص الجغرافيا بفروعها المختلفة. غير أننى أكتفى بهذه الأمثلة لأنها تؤدى الغرض من إيرادها هنا، وهو بيان الأصول الجغرافية الموجودة فى القرآن الكريم. فليست العلوم الجغرافية غريبة علينا نحن المسلمين، ولا هى مقحمة على ثقافتنا الإسلامية. ومن ثم وجدنا العلماء المسلمين منذ وقت مبكر جداً يؤلفون فى الجغرافيا، وينشئون "علم تقويم البلدان" – وهو العلم الجغرافى باسمه الإسلامى. وعلى هذا أقول إن أى باحث منصف لا بد أن يعترف بأصالة علم تقويم البلدان وتميزه من الجغرافيا الإغريقية. ومؤلفات علمائنا تؤكد ذلك.

أصالة لا تمنع الاقتباس:

وهذه الأصالة لا تمنع العالم المسلم من اقتباس أية حقيقة جغرافية من مؤلفات غير المسلمين، فالحقيقة ضالة المؤمن، أنَّا وجدها فهو أحق الناس بها، كما قال رسول الله ﷺ.

وقد أخذ الجغرافيون المسلمون عن بطليموس – الجغرافى الإسكندرى القديم– دون حرج. لكنهم أخذوا وتركوا بمعايير علمية ودينية. أخذوا الحقائق وبنوا عليها، ولقحوها، فأثمرت وازدهرت عند رجال مثل ابن خرداذبة (٨٤٦م) واليعقوبى والإصطخرى والإدريسى والبيرونى. وترك الجغرافيون المسلمون الأساطير والخرافات العديدة التى شاعت فى كتابات الإغريق والهنود والفرس والنصارى، مثل زعمهم إنه ليس فى العالم كله سوى بحرين! و ٧٢ جزيرة! و ٤٠ جبلاً! وإن المطر هو غسيل الملائكة للسماء! وإنكار كروية الأرض، وتكفير من يقول بها!

ولقد أُعدم "جيوردانو برونو" (١٥٤٨-١٦٠٠م) المفكر الإيطالى لأنه أعلن أن هناك عوالم غير عالمنا هذا -لا حصر لعددها، وكلها آهل بالسكان؛ أى أنه أعلن رأياً فلكيًّا، أو نظرية فلكية ! فاعدموه حرقاً بالنار![1].

ولقد بدأ ياقوت الحموى كتابه "معجم البلدان" بآيات من القرآن الكريم. قال: قال الله - عز وجل - ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [النبأ: ٦، ٧] وقال - عز وجل - ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [غافر: ٦٤] وقال سبحانه ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ [نوح: ١٩] قال المفسرون: البساط والمهاد: القرار والتمكن منها، والتصرف فيها"[2].

والجغرافيا علم يعنى بوصف سطح الأرض وما عليه من مظاهر، ثم يصنف الظاهرات المختلفة، ويحللها، ويربط بينها ليستخلص منها قوانين عامة[3].

فالأرض هبة من الله تعالى، مهدها للإنسان، وسخرها له، وشد انتباهه إلى ما فيها وما عليها من خيرات، وحرَّضَه على فهمها، لكى يستطيع أن يسلك سُبلها ويستفيد من خيراتها. فإذا استجاب لخالقه، وصل إلى القوانين التى تضبط ظواهرها. وذلك هو العلم الجغرافى، الذى أسهم المسلمون فى ترقيته بسهم وافر.

الخَلَف على درب السَّلف:

والجغرافيون المسلمون المعاصرون يسيرون على درب سلفهم العظماء. فيقول الأستاذ الدكتور محمد محمود الديب الأستاذ بجامعة عين شمس إن: "الجغرافيا تدرس بعض آيات الله، وما خلقه الله فى المكان (التضاريس، المناخ، النبات الطبيعى، والحيوان البرى) أى هندسة الله الطبيعية فى المكان، فضلاً عما أوجده الإنسان من

---

(١) أحمد أمين، زكى نجيب محمود؛ قصة الفلسفة الحديثة؛ ص ٤١ .
(٢) معجم البلدان؛ الباب الأول؛ ص ١٦ .
(٣) شفيق غبريال؛ الموسوعة العربية الميسرة - مادة الجغرافيا.

ظاهرات بشرية على سطح الأرض وفى المكان. لذا فالجغرافيا علم قرآنى بمعنى أنها وثيقة الاتصال بعلوم القرآن، بل وتدخل الجغرافيا ضمن علوم الدين الإسلامى، وهى قرآنية جداً، الا يحض الإسلامُ الإنسانَ على تدارس الدنيا وتدبرها والكون من حوله ؟ " وهو يعرِّف الجغرافيا فى إيجاز فيقول: "والجغرافيا هى كل ما تراه العين خارج البيت أى فى الطبيعة أو فى البيئة، أى فى المكان"(١).

مقارنات بين المسلمين والنصارى واليونان:

وفى هذا يقول نفيس أحمد إن: "ما أسدَاه المسلمون إلى علم الجغرافيا يميز مرحلة بذاتها فى تاريخ الفكر الجغرافى والمعرفة الجغرافية، ويشمل آفاقاً واسعة إلى درجة مدهشة، وله آثار بالغة المدى"(٢).

وكان الإغريق والرومان قد حققوا نجاحات كبيرة فى المجال الجغرافى، لكن رجال الدين المسيحى روَّجوا للمبدأ القائل: "ليكن الله صادقاً وحده، وكل البشر كذابون!" فخيم الظلام بستائره القاتمة على الجغرافيين وعلى غيرهم. وعلى النقيض من ذلك آمن العلماء المسلمون بإمكان تحصيل العلم الصحيح، مع التحفظ الورع بقولهم: "والله أعلم" وهكذا انطلق الإنسان المسلم فى البحث الجغرافى وغيره ببواعث دينية ودنيوية، وحقق إنجازات مدهشة فى شتى المجالات(٣).

فالرؤية الإسلامية هى أساس الانطلاق والبذل والشوق إلى المعارف، كما أن الرؤية الكنسية هى التى أصابت النشاط العلمى اليونانى بالشلل، لتحل محله كهانة الكهان حول: نهاية العالم سنة ١٠٠٠م، والسخرية من القائلين بكروية الأرض ووجود سكان على ظهرها من كل جهة !! ووصف "كوزماس" الأرض وصفاً مضحكاً وطفولياً!

---

(١) من مقدمة الدكتور محمد محمود الديب لكتاب التراث الجغرافى العربى؛ تأليف ظريف رمضان مراد؛ ص ٧ .

(٢) جهود المسلمين فى الجغرافيا؛ ص ١٩ .

(٣) نفسه؛ ص ٢٠، ٢١ .

ولم يلتفت المسلمون إلى كهانة الكهان، بل ترجموا الكتب العلمية المحترمة، وصححوا أخطاءها، ثم لقحوا العلم اليونانى بالعلوم الهندية والفارسية، فتحقق لديهم الابتكار والأصالة. ويقول سارتون: "وإذا لم يسم هذا ابتكاراً علمياً فليس هناك ابتكار فى أى علم. فما الابتكار سوى نسج الخيوط المختلفة وربط بعضها ببعض. أما الابتكار من العدم فلا وجود له"(١).

ويقول نفيس أحمد: "إن الرقى الثقافى لا يأتى فى مقصورة (أو لنقل فى كبسولة!) محصورة لا ينفذ من جدرانها شىء، بل إنه قصة من الاتصالات الواسعة، وحركات الفعل ورد الفعل المتوالية"(٢). يريد أن يقول إن استفادة الجغرافيين المسلمين من الإغريق لا تقدح فى أصالتهم، ولا يجوز أن تكون تكئة لإنكار إسهاماتهم، لأن تاريخ العالم العلمى يؤكد أن الأمم تأخذ من سابقيها، ثم تضيف أو لا تضيف إلى ما أخذت، والأمة المسلمة أخذت وأضافت الكثير.

يقول كراتشكوفسكى: "إن الجغرافيين العرب وحدهم الذين ذللوا الطريق لدراسة المادة الجغرافية الهائلة التى أورثها اليونان للعصور الوسطى"(٣).

ثراء المخطوطات الجغرافية الإسلامية دليل الإسهام الكبير

وفى مكتبة المتحف البريطانى وحدها ١٦٠ مخطوطة تغطى بعض الدراسات الجغرافية. وهذا دليل على غزارة الإنتاج العلمى الجغرافى فى العالم الإسلامى. منها:

١- الجغرافية العامة وكتب البلدان.

٢- الجغرافية الطبيعية.

٣- المعاجم الجغرافية وتقاويم البلدان.

٤- الرحلات الجغرافية.

٥- كتب الخطط وفضائل البلدان.

---

(١) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته؛ نقلاً عن مترجم كتاب "نفيس أحمد" - هامش ص ٢٣.
(٢) جهود المسلمين فى الجغرافيا؛ ص ٢٠٣.
(٣) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ٢٢.

٦- كتب العجائب[١].

و"تقويم البلدان" هو الاسم الأصيل للعلوم الجغرافية. وليْتَنا احتفظنا به!!

ومن المعروف أن أعداداً كبيرة أخرى من المخطوطات الجغرافية النادرة موجودة فى دور الكتب الكبرى فى عواصم العالم العربى والإسلامى والأوربى. وكل متحف عالمى يعتز بثروة هائلة من المخطوطات العربية فى مختلف فروع المعرفة التى كانت متاحة فى العصور القديمة والوسطى.

هذه الثروات العلمية الهائلة تشهد للمسلمين بالريادة والسبق والأصالة فى كافة المجالات العلمية، وتثبت أصالتهم، وإسهاماتهم المبكرة فى تأسيس العلوم، وتنمية العلوم القديمة -اليونانية والفارسية والهندية - وتنقيتها من الأخطاء والخرافات، وترقيتها، والحفاظ عليها، وتقديمها للعالم سائغة شهية، لتكون هى البذور السليمة للنهضة الأوربية الحديثة.

ونظرة فاحصة إلى السطور التى سُجلت على صفحات أغلفة تلك المخطوطات تبين سعة حقل الدراسة وشموله. فعلى صفحة غلاف كتاب "عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة" لابن سرابيون (أوائل القرن الرابع الهجرى)، كتب المؤلف: "هذا كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة، وكيفية هيئة المدن، وإحاطة البحار بها، وتشقق أنهارها، ومعرفة جبالها وأوديتها، وطرقها ومسالكها، فى بحرها وبرها، وجميع ما وراء خط الاستواء، والطول والعرض، بالمسطرة والحساب، والعدد والبحث، على جميع ما ذكر أعلاه، والله الموفق للصواب، وهو حسبى"[٢].

وعلى غلاف "كتاب الجعرافية" - بالعين المهملة - لأبى عبد الله محمد ابن أبى بكر الزهرى (توفى أواسط القرن السادس الهجرى)، جاء قوله: "كتاب الجعرافية فى صفة الأقاليم وأنهارها وجبالها ومعادنها، وسكانها، وأشكالها، وذِكر مَن

---

(١) د. عبد الله يوسف الغنيم؛ المخطوطات الجغرافية العربية فى المتحف البريطانى؛ الكويت؛ ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م - نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - السلسلة التراثية؛ ص ٧.

(٢) د. عبد الله يوسف الغنيم؛ المخطوطات الجغرافية العربية؛ ص ١٢.

بَنى المدن وأنشأها، وما فيها من العجائب والطلسمات، ومساحة كل أرض، وعرض كل أرض وطولها، وما ذَكَرتْه الفلاسفة فى تكسيرها"[١].

وذُكر فى مقدمة الكتاب أنه أُلِّف للخليفة العباسى هارون الرشيد؛ الذى كان مغرماً بالعلوم، والذى عرف عنه حفاوته الشديدة بالعلماء.

وفى معظم المؤلفات الإسلامية الجغرافية نلمس النزوع إلى الشمول بقدر ما تسمح إمكانات العالم وظروف العصر. ووراء ذلك رغبة عارمة فى المعرفة.

وشهد شاهد من أهلها!

وهذه شهادة كاتب غربى معاصر، هو: "توماس جولدشتاين" الذى يُعد من أهم المراجع فى تاريخ العصور الوسطى وعصر النهضة الإيطالى وعصر الاكتشافات، توضح ريادة المسلمين فى كل العلوم وإسهاماتهم فيها.

كتب "جولد شتاين" فصلاً طويلاً فى كتابه: "المقدمات التاريخية للعلم الحديث عن "هبة الإسلام"[٢] وصف إقبال الأوربيين على الاستفادة من التراث الإسلامى فى الأندلس فقال: "**كانت المكتبات بأرففها المكدسة بالمجلدات، فى أشد الموضوعات تنوعاً، تنتظر الدارسين من الغرب الوسيط، وكل ما كان عليهم عمله هو أن يعبروا جبال البرانس، ويحتشدوا فى أماكن العلم الإسلامية السابقة. ويأخذوا المجلدات من الأرفف، ويزيحوا عنها التراب، ويمكثوا لدراسة اللغة العربية**" .. "**وبعد ذلك فقط انغمس الدارسون الأوربيون فى التراث الإسلامى بكل حماسهم**" **وانبهر الأوربيون بثقافة المسلمين انبهاراً شديداً**: "**وبحلول القرن الثانى عشر كان هذا الانبهار قد اكتسب أبعاد عقيدة.**" .. "**وكانت النتيجة حفزاً فكرياً منقطع النظير، فقد تأثرت بعمق كل وجوه الحياة الأوربية تقريباً: من الدين والفلسفة، إلى المؤسسات الحكومية، إلى العمارة، إلى العادات الشخصية،**

---

(١) د. عبد الله يوسف الغنيم؛ المخطوطات الجغرافية العربية؛ ص ٢٨ .

(٢) من ص ١٠٩-١٤٤؛ نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت؛ سلسلة عالم المعرفة؛ سبتمبر سنة ٢٠٠٣م. ترجمة: أحمد حسان عبد الواحد.

والشعر الرومانسي." .. "وفي أقل من جيل، تُرجم لُبُّ العلم الإسلامي إلى اللاتينية .. وخلال مائة عام، كان الغرب - من الناحية الجوهرية - قد استوعب المعرفة العلمية للإسلام." .. وتناثر عدد من المراصد الفلكية في أرجاء العالم العربي .. وراكم العرب جداول فلكية، هي سجلات رصد منهجي للنجوم .." وحسنوا الاصطرلاب والمزولة وذات الحَلَق[1].

المواد المختارة للدراسة :

وقد اخترت خمسة مؤلفات لخمسة من الرواد كنماذج للدراسة، وهي :

١- المسالك والممالك، لابن خرداذبه.

٢ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي.

٣ - صورة الأرض، لابن حوقل.

٤ - معجم البلدان، لياقوت الحموي.

٥ - البلدان، لليعقوبي.

* * *

(١) من ص ١٠٩-١٤٤؛ نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت؛ سلسلة عالم المعرفة؛ سبتمبر سنة ٢٠٠٣م. ترجمة: أحمد حسان عبد الواحد؛ ص ١١٠- ١٢٠ .

obeikandl.com

● الأنموذج الأول:
ابن خُرْداذبه

حياته:

لا يوجد فى كتاب: "المسالك والممالك" أى ذكر لحياة مؤلفه ابن "خُرداذبَه" سوى اسمه على الغلاف. فهو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، ثم تضاف صفة واحدة إليه، وهى: "مولى أمير المؤمنين".

ويقول كراتشكوفسكى إنه فارسى الأصل؛ وكان جده مجوسيًّا. وكان والده حاكماً لطبرستان فى أوائل القرن التاسع الميلادى. وتلقَّى ابن خرداذبه تعليماً جيداً، شمل الموسيقى. وقد ألف عشرة كتب عُرفت من أسمائها فقط، وهى تدور فى نطاق الأدب الخفيف. ومنها كتاب فى تاريخ الأمم قبل الإسلام.

وشغل ابن خرداذبه وظيفة صاحب البريد بنواحى الجبال بإيران. وكانت تلك الوظيفة مساعدة فى تأليف كتابه "المسالك والممالك" إلى جانب أنه كان استجابة لطلب أحد كبراء العباسيين.

وقد استغرق تأليف الكتاب وقتاً طويلاً. وتشهد بذلك المعارف الغزيرة التى تضمنها، والتى يستحيل جمعها فى سنة أو اثنتين.

والمرجَّح أنه توفى سنة ٣٠٠هـ - ٩١٢م؛ وكان ميلاده سنة ٢٠٥هـ - ٨٢٠ م حسبما أورده "حاجى خليفة"(١).

كتابه: المسالك والممالك:

يبدأ برسالة إلى الشخص الذى طلب إليه تأليف الكتاب، ومنها يظهر أنه أمير عباسى. يقول ابن خرداذبه: "أطال بقاءك يا ابن السادة الأخيار والأئمة الأبرار ...

---

(١) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب العربى الجغرافى؛ ص ١٥٥، ١٥٦ بتصرف.

فهمتُ الذى سألتَ، ألْهَمَكَ اللهُ جميع الخيرات، وأسعدك إلى الممات، وأفلح فى الداريْن سهمك، ووفر فيهما قسمك من رسم إيضاح مسالك الأرض وممالكها، وصفتها، وبُعدها وقُربها، وعامرها وغامرها، والمسير بين ذلك منها، من مَفَاوزها وأقاصيها، ورسوم طرقها وطسُوقها . . "(١).

وبعد نبذة حول كروية الأرض، يذكر القبلة لأهل كل بلد، ثم يبدأ فى الحديث عن أرض "السَّوَاد" الذى كانت ملوك الفرس تسميه "دِل ايرانشهر"، وهو يعنى "قلب العراق"، ثم يفصل القول فى وصف قرى السواد، وما يُسقَى من دجلة والفرات، ثم يصف مساحاته، ودخله من القمح والشعير، والفضة. ويذكر مبلغ جباية السواد فى عهد ملوك الفرس.

ومن الجلى أن هذه الأمور من اهتمامات ذلك الأمير العباسى المالية.

ثم يدخل فى فصول تاريخية عن " ألقاب ملوك الأرض"، من أول الزمان. ثم يبدأ فى "المسالك والممالك" بعد ذلك(٢). فيحدد المسافات من بغداد إلى أقاصى خراسان بـ "الفَرْسَخ" – المقياس الذى كان متداولاً فى ذلك العهد. ويفصِّل القول فى مساحات أصبهان، وغيرها من المدن، ويذكر طرق الرى . . . ومقدار الخراج.

وهذا الترتيب يبدو غريباً حيث أخَّر المؤلف وَصْفَ المسالك من بغداد إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة بعكس تقاليد الجغرافيين المسلمين. لكننا إذا تذكرنا الأمير الطالب للكتاب "ابن السادة الأخيار والأئمة الأبرار" وهم حكام البلاد العباسيين، أدركنا أن ابن خرداذبه أصاب المطلوب.

ثم يخوض المؤلف فى "المسالك" فى بلاد الفرس والترك، فيذكر المدن والقرى والمسافات بينها، والخراج الذى يُجْبَى منها. وبذلك يقدِّم معلومات غزيرة متنوعة، وأرقاماً وإحصاءات واسعة، لا يمكن الحكم على مدى دقتها. ومرة أخرى يشعر

---

(١) المسالك والممالك؛ ص ٣ .
(٢) نفسه؛ ص ١٨ .

الباحث ان وظيفة "صاحب البريد" لا بد أن تكون مصدراً لبعض تلك المعلومات، لأنها تمر عبر البريد إلى أيدى كبار المسئولين فى الدولة.

ويمضى ابن خرداذبه فى جولات واسعة فى بلاد فارس ثم ينتقل إلى طريق السند، ثم يعود إلى الطريق من بغداد إلى البصرة، ومن البصرة إلى عُمان، وينتهى إلى وصف عدن.

وصف عدن:

ونتوقف معه فى عدن لنسمع وصفه لها فيقول إنها: "من المراقى العظام. ولا زرع بها ولا ضرْع. وبها العنبر والعود والمسك، ومتاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجُدَّة والقُلْزُم." ثم يدخل فى مبالغات غير معقولة فيقول: "وهذا البحر هو البحر الشرقى الكبير، ويخرج منه العنبر الجيد، وعليه الزنج والحبشة وفارس. وفيه سمك طول السمكة مائة ذراع ومائتا باع، يخاف منها على السفن، فتُنَفَّر بضرب الخشب على الخشب. وفيه سمك مقدار الذراع، يطير! وجوهه كوجوه البوم..!"[1].

ثم ينتقل إلى مساحة سرنديب. ولا يذكر لنا إن كان زارها أم لا. ومنها إلى طريق الصين، وما فيه من أكلة لحوم البشر، ولا ينسى ذكر ما عندهم من الموز والكافور والنارجيل والأرز وقصب السكر. وينتقل إلى الهند والصين، والطرق والمحاصيل والعادات والتقاليد. ثم الطريق من بغداد إلى المغرب عبر مصر، ثم إقليم حمص ومنها إلى دمشق، ثم فلسطين، إلى الرملة، إلى الفسطاط.

ويذكر أسماء "كور مصر" يعنى قراها، فيقول: "كورة مَنْف ووسيم، كورة دلاص، كورة الشرقية، كورة بوصير، كورة الفيوم.. إلخ"[2] وكان خراج مصر فى أيام فرعون ستة وتسعين ألف ألف دينار. وجباها عبدالله بن الحبحاب فى أيام بنى أمية: ألفى ألف، وسبعمائة ألف، وثلاثة وعشرين ألفاً، وثمانمائة وسبعة وثلاثين ديناراً[3]. ولم يذكر أسباب الزيادة.

---

(١) المسالك والممالك؛ ص ٦١. (٢) نفسه؛ ص ٨١-٨٣. (٣) نفسه؛ ص ٨٣.

ثم ينتقل إلى المغرب، والأندلس، والبربر، ثم يعود إلى المشرق، والطرق من بغداد إلى الموصل، وطريق البريد من حمص على بَعْلَبَك، إلى بلاد الروم ابتداء من رومية، وبَطَارقتها، وخراج بلادهم وجزائرهم. ثم يعود إلى أرمينية وآذربيجان.

وصف المدينة المنورة:

وأخيراً وصل إلى المدينة المنورة. وهذا وَصْفه للطريق الذى سلكه رسول الله ﷺ؛ قال: "حين هاجر أخذ به الدليل فى أسفل مكة حتى جاء إلى الساحل أسفل من عُسْفان، ثم عارض به الطريق حتى جازَ قُدَيْداً، فسَلكَ فى الخَرَّار، ثم عَلا ثَنية المرأة، ثم استبطن به مَدْلَجَة مَجَاج، ثم سلك مَرْجِح من مَجَاج، ثم بطن مَرْجِح ذى الغَضْوَيْن، ثم بطن ذات كَشْد، ثم أخذ الأجْرَدَ، ثم سلك ذات سَمُر، ثم بطن أعداءُ مدلجة تَعْهِن، ثم بلغ العِثْبَانَة، ثم أجَاز القاحة، ثم هبط به العَرْجَ، ثم سلك ثنيَّةَ الأعيار عن يمين رَكوبَه، ثم هبط رِئْمَا، ثم إلى بنى عمرو بن عوف بقُبَا"(١).

تعقيب:

وهكذا غطى مساحات شاسعة فى كتابه هذا، وتجول عبر مئات المدن والأقاليم والقرى، والمسافات التى تفصل بينها. وقدم للأجيال التالية أنموذجاً للحقل المديد الفسيح الذى ينتظر كل مَن يؤلف فى "المسالك والممالك". وهو يدهشنا بالمعارف والمعلومات الجغرافية والتاريخية والإدارية التى يسوقها بغزارة عبر سطوره.

ويشعر الباحث أن ابن خرداذبه أخذ عن غيره الكثير. وهو يصرح بذلك أحياناً. كقوله بعد حديث طويل عن "صفة سد يأجوج ومأجوج": "فحدثنى سلاَّم الترجمان بجملة هذا الخبر. ثم أملاه علىَّ من كتاب كان كتبه للواثق بالله"(٢) وهى قصة معروفة فى كتب "المسالك".

إذن، هو ينقل عن غيره. وهذا تقليد لا غبار عليه، شريطة أن يكون الغير

---

(١) المسالك والممالك؛ ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) نفسه؛ ص ١٧٠ - والواثق بالله هو الخليفة العباسى.

موثوقاً به. وفوق هذا يجب أن تُناقش الأخبار للتوثق من صحتها. لكن هذا لم يحدث. ومرت قصة يأجوج ومأجوج وغيرها من أخبار العجائب مرور الكرام، وصارت فصلاً لا يُفتقد فى المؤلفات التالية.

وقد خُتم كتابه بخرافة – لعلها لتسلية الأمير العباسى– عن مدينة تسمى "كِسّ" بمسيرة يومين من سمرقند، والعين العجيبة التى منها يخرج سكان الماء .. إلخ وهى خاتمة غير مقبولة لكتاب علمى فى "المسالك والممالك" بدأ بحديث عن كروية الأرض. فما أبعد الشقة بين البداية والنهاية !

وكلام كراتشكوفسكى عن كتاب ابن خرداذبه ربما يفسر بعض المصاعب التى ذكرتُها. فهو يقول: "ولم يقتصر كتاب ابن خرداذبه على وصف الطرق، بل أتبع ذلك أقساماً عديدة تحمل على الاعتقاد بأنها زيادات متأخرة أضيفت بمرور الزمن، كالحديث – مثلاً – عن تقسيم الأرض الذى يحفل بأخطاء عديدة، وعن عجائب العالم وعن الأبنية المشهورة حيث يورد قصة عن فتح الأهرامات فى عهد ابن طولون. وينضم إلى هذا القسم من كتابه الوصف المعروف لنا لرحلة سلاَّم الترجمان، ويتلوه حكاية عن العجائب المختلفة والجبال والأنهار. وهنا، وعلى حين بغتة، تنتهى المخطوطة، كأنما بدون خاتمة !"(١).

مناقشة مسألة الخرافات:

ولعل هذا من بعض ما أغضب ابن خلدون بعد ذلك بحوالى خمسة قرون، حيث قال: "وإن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهِمُوا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المُضْعَفَة لفَّقوها ووضعوها"(٢).

لكننا لا يمكن أن ننسى ونحن ننقد ابن خرداذبه الذى توفى سنة ٣٠٠هـ أن ذلك العصر كان يعانى من شيوع الروايات الخرافية، حتى لم ينج منها مؤرخ

---

(١) الأدب الجغرافى العربى؛ ص ١٥٧ .
(٢) المقدمة؛ ط الشعب؛ ص ٧ .

أو جغرافى. وهذا ابن خلدون نفسه الذى تبنى مبدأ فحص الأخبار بمعيار "طبائع العمران" هو نفسه صدَّق أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحتت قلبه ويقع ميتاً، وينقب عن قلبه فلا يوجد فى حشاه"[١]. فبعد خمسمائة عام كان لا يزال الناس يتقبلون، بل يرحبون، بهذه الخرافات ويسعدون بها. ولا يزال الناس إلى اليوم - فى القرن الحادى والعشرين الميلادى، وفى البلاد الأوربية والولايات المتحدة، يصدقون السحرة والمنجمين. وقد نقلت الصحف يوم ٢٧ / ٥ سنة ١٩٩٠ خبراً يقول إن "ريجان" الرئيس الأسبق لأمريكا كان يتخذ بعض القرارات استناداً إلى نصائح "عَرافة!" شهيرة!

إننى لا أدافع عن ابن خرداذبه، ولا أسوغ إيراده للعجائب، ولكنى أحاول أن أضع مسلكه ضمن ظاهرة ثقافية واجتماعية عالمية، لها سطوة عجيبة على عقول الجماهير، على الرغم من خلوها من المعقولية.

تقدير ابن خرداذبه:

وقيمة كتاب ابن خرداذبه تتمثل فى أنه "حفظ لنا مادة مفيدة، خاصة فيما يتعلق بوصف الطرق فى عهود مبكرة"[٢]. وقد كان "تأثيره على الأدب الجغرافى التالى كبيراً جداً، فأخذ عنه من المؤلفين المتقدمين: اليعقوبى وابن رُسته وابن حوقل والمقدسى والجيهانى والمسعودى .. كما أن العناية به ظلت قوية حتى بين المتأخرين، فعرفه الإدريسى وابن خلدون، كما عرفه جيداً الجغرافيون الفرس، سواء المتقدمون منهم، مثل المؤلف المجهول لكتاب "حدود العالم"، أو المتأخرون مثل حمد الله قزوينى وميرخوند وخوندمير. ولم يكن باستطاعة ابن خرداذبه أن يؤسس مدرسة جديدة، غير أن المادة التى جمعها كانت بمثابة الأساس المتين بالنسبة لكثيرين. وقد عُرف كتابه فى الدوائر العلمية الأوربية فى مخطوطتين منذ الستينيات من القرن الماضى (التاسع عشر) وأصبح فى متناول الأيدى بفضل الطبعة العلمية التى استخدم فى إخراجها

---

(١) المقدمة؛ ط الشعب؛ ص ٤٧٠ .

(٢) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب العربى الجغرافى؛ ص ١٥٨ .

مخطوطة ثالثة أفضل من المخطوطتين الأولتين. وظهرت مع ترجمة فرنسية لدى خويه De Goeje فى عام ١٨٨٩م.

وقد اجتذب اهتمام العلماء الروس بصورة خاصة وَصْفه للطرق التى كان يسلكها الروس، وقد ظهرت فى السبعينيات من القرن الماضى (التاسع عشر الميلادى) أبحاث مهمة فى هذا للمستشرقين "كونيك "Kunik و "روزن "Rosen، كما ندين بتحليل عام للكتاب للمؤرخ الكبير بارتولد"(١).

هذا هو التقدير الذى لقيه ابن خرداذبه من المستشرق الكبير كراتشكوفسكى. وهذا هو التقدير الذى ناله هذا الجغرافى المسلم الرائد من الجغرافيين العرب والمسلمين، وهذا هو الاهتمام الذى لقيه كتابه "المسالك والممالك" لدى المستشرقين الأوروبيين.

ومجموع هذه التقديرات ينطق بأن ابن خرداذبه كان رائداً كبيراً فى مجال علم تقويم البلدان، وبأن كتابه قد أسهم إسهاماً عظيماً فى توجيه البحوث فى مجال هذا العلم، وأنه أعطى مثالاً نموذجيًّا للبحث الجغرافى الشامل، وللعالم الجغرافى الصبور المثابر. وإذا نحن تذكرنا أنه ألف عشرة كتب أخرى فُقدت كلها، ولم يبق منها سوى أسمائها، لأدركنا أننا نقف أمام عملاق موسوعى نادر.

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن أمته وعن الإنسانية أحسن الجزاء.

* * *

(١) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب العربى الجغرافى؛ ص ١٥٨.

●الأنموذج الثانى:
المقدسى

حياته:

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسى – عاش فى القرن العاشر الميلادى. ولد فى بيت المقدس (سنة ٣٣٥هـ – ٩٤٧م)[١] وتخصص فى الدراسات الجغرافية، حتى صار من أشهر الجغرافيين العرب والمسلمين (توفى سنة ٣٩٠هـ – ١٠٠٠م)[٢].

وألّف كتابه الفريد فى وصف بلدان العالم الإسلامى دون سواها، وصرح بأنه لم يسافر إلى الأندلس فكتب عنها بالسماع ممن يثق فيهم. وتلك صراحة تُعلى من قدره وتؤكد أمانته العلمية.

وقرأ المقدسى مؤلفات أبى زيد البلخى، وابن الفقيه الهمذانى، والجاحظ، وابن خرداذبه، ولم يستفد منها كثيراً فى تأليف كتابه: "أحسن التقاسيم". وقرر أن يجعل كتابه مختلفاً عنها، وأفلح فى ذلك.

وهو سُنِّى على مذهب أبى حنيفة، وأورثه ذلك ميلاً إلى الحنفية، وجفوة تجاه المذاهب الأخرى، تصل أحياناً إلى حد النقد الحاد دون مسوِّغ[٣].

وبسبب تنقلاته بين البلاد الإسلامية أطلق عليه الناس ألقاباً عديدة، منها المقدسى والفلسطينى والمصرى والمغربى والخراسانى.

وامتهن مهناً عديدة ليكسب عيشه ويموِّل رحلاته: فهو تاجر، لكنه عمل ورَّاقاً ومجلِّداً وإماماً ومؤذناً وخطيباً وأستاذاً، وأشياء أخرى.

---

(١) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ٢٠٩.
(٢، ٣) نفسه؛ ص ٢١٠.

وفى تنقلاته بين البلاد تعرض للغرق، وقطّاع الطرق، وأُودع السجن، واتُّهم بالتجسس، لكثرة سؤاله عن أحوال البلاد، وحرصه على مشاهدة معالمها، وذات يوم تعرض لمؤامرة لقتله.

ويقول إنه شارك فى الغزو والرباط، لكنه لا يحدد أين ومتى ومع من وضد من.

وبصفة عامة كانت حياته سلسلة من المتاعب والقلاقل والتطورات. ولم يقدم أية تفاصيل عن أصله، ونشأته فى بيت المقدس وتعليمه، وتجارته. وربما كان ذلك سبباً فى الشكوك التى ثارت حوله.

كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم

مقدمة

سفر ضخم، وثروة علمية واسعة، أسهم بها شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أحمد المقدسى ، فى تشييد صرح العلوم الجغرافية فى عالمنا الإسلامى. وقد اعتبره "اشبرنجر" : "أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة"(١).

ويكشف المقدسى عن بواعثه فيقول: " مازالت العلماء ترغب فى تصنيف الكتب لئلا تندرس آثارُهم، ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سننهم .. وأقيم علماً أحيى به ذِكرى، ونفعاً للخلْق أُرضى به ربى"(٢).

فالرجل صريح يكشف عن غايته الشخصية، وعن غايته العامة، فيخلد ذِكره، ويُرضى ربه، وينفع الخلْق بعلمه. وهذا الازدواج فى الغاية لا يحبط العمل، إذا كانت الغاية الدينية هى الأولى، والشخصية ثانوية، كالتنفيل قبل الجهاد، والتجارة مع الحج. فنسأل الله له القبول على هذا العمل العلمى الكبير الذى أفاد أمته المسلمة فائدة عظيمة.

ويعلن المقدسى عن ثقافته الواسعة حين يقرر أن العلماء قد أغفلوا هذا

---

(١) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ٢٠٨ .
(٢) كتاب أحسن التقاسيم؛ طبع ليدن؛ سنة ١٩٠٦م؛ ص ١ .

العلم، إذْ لا يدرك ذلك إلا عالم واسع الثقافة. **وما كُتب فيه به خلل. وهذا العلم هو: "ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار، والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم** .. وعَلِمْتُ أنه باب لابد منه للمسافرين والتجار ... إذْ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء .. وما تم لي جمعُه إلا بعد جولاتي في البلدان .. ولقائي العلماء وخدمتي الملوك .. مع لزوم التجارة في كل بلد .. وترك المعصية، ولزوم النصح للمسلمين بالحسبة، والمراقبة لله والخشية، بعد ما رَغَّبْتُ نفسي في الأجر .. وخوَّفْتُها من الإثم وتجنبْتُ الكذب والطغيان .. إلخ"(١).

وهذا مخطط كبير، ثقيل، متسع. وقد أنجزه المقدسي رحمه الله، فجاء في ٤٣١ صفحة (في طبعة ليدن). وقد التزم المقدسي بالقيم الإسلامية التي أعلنها، من ترك المعاصي والمراقبة لله، فلم ألْمَسْ في كتابه نفاقاً لسلطان ولا تحيزاً لإقليم ولا تحاملاً على شعب. وقد اعتمد على التجارة حتى يمول مشروعه الباهظ التكاليف من سفريات وإقامات في غير بلده بعيداً عن أهله. ولم أر أثراً لخدمته للملوك؛ وقد أعلن علماء عديدون أنهم كتبوا مؤلفاتهم بطلب من السلاطين، وعندئذ يُتوقع أن تظهر مجاملات، لأن السلطان هو الذي يمول الرحلة. لكن المقدسي اعتمد على التجارة، وألَّف كتابه برغبته هو الذاتية، لا برغبة سلطان، ولا بأمر حاكم. وبهذا استطاع المقدسي أن يحقق المعايير الإسلامية، من حيث الموضوعية والصدق ونشدان الحقائق – وهي المعايير التي تفرضها الرؤية الإسلامية.

ويعلن المقدسي أنه حصل على معلوماته من المشاهدة ومن سؤال: "ذوي العقول من الناس، ومَن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس، عن الكور والأعمال في الأطراف التي بَعُدَت عنها، ولم يتقَدَّر لي الوصول إليها. فما وقع عليه اتفاقهم أثبتُّه، وما اختلفوا فيه نبذتُه، وما لم يكن لي بُدٌّ من الوصول إليه والوقوف عليه قصدتُه، وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره، أو قلت: زعموا!"(٢).

---

(١) كتاب أحسن التقاسيم؛ طبع ليدن؛ سنة ١٩٠٦م؛ ص ٢، ٣.
(٢) نفسه؛ ص ٣، ص ٨.

وهذه هى المعايير العلمية والأخلاقية للبحث العلمى، باستثناء الجملة الأخيرة؛ فالواجب على العالم أن ينزه قلمه عن تسطير كل ما لا يقبله عقله. ولا يجوز إسناده إلى قائله ثم تسجيله. وهذه قاعدة يعرفها علماء الحديث. فما يخالف العقل من الأخبار "يجب تكذيبه"(١).

ويكشف المقدسى عن اطلاعه على التراث الإسلامى فى مجال تقويم البلدان، وعلى نزعته النقدية أيضاً. فـ "الجيَّهانى" كان وزير أمير خراسان، وكان صاحب فلسفة ونجوم. وأبو زيد البلخى صور الأرض وقسمها، ولم يذكر الأسباب المفيدة، وترك كثيراً من أمهات المدن. والهمذانى لم يذكر إلا المدائن العظمى، وأدخل فى كتابه ما لا يليق. والجاحظ وابن خُرداذبَه كتاباهما مختصران جداً، "لا يحصل منهما كثير فائدة"(٢).

وفى إيجاز – يقول المقدسى– إن طريقته فى تأليف كتابه تختلف عن كتب أولئك العلماء، وتتحاشى المناقص التى رآها عندهم. ويتعهد بألاَّ يقتبس منهم إلا عند الضرورة.

ويعلن عن تواضعه ومعرفته لنفسه كبشر غير معصوم فيقول: "ثم إنى لا أُبَرِّئ نفسى من الزَّلل، ولا كتابى من الخلل." وصدق المقدسى رحمه الله تعالى، فقد التزم بهذه المعايير.

وبدأ كتابه بعد المقدمات بوصف الأنهار والبحار فى البلاد الإسلامية. ثم كتب باباً عن "الأسامى واختلافها"(٣). ذلك أن فى بلاد المسلمين بلداناً تتفق أسماؤها وتتباين مواضعها، ويُشكل على الناس أمرها. من ذلك مثلاً: طرابلس مدينة على ساحل دمشق وأخرى على ساحل برقة. وحلوان: كورة بالعراق ومدينة بمصر. والنيل نهر مصر ومدينة بالعراق. وهكذا عشرات الأسامى.

وهو باب مفيد جداً.

---

(١) راجع: الإمام الغزالى؛ المستصفى؛ ط. الجندى؛ ص ١٦٦، ١٦٧.
(٢) كتاب أحسن التقاسيم؛ ص ٤، ٥.
(٣) نفسه؛ ص ٢٤ وما بعدها.

صعوبات على الطريق:

ويطلعنا المقدسى على ألوان العذاب وصنوف الأخطار والمشقات التى عاناها فى أسفاره الطويلة المرهقة.

يقول: "وطُردتُ فى الليالى من المساجد. وسحتُ فى البرارى. وتهتُ فى الصحارى. وصدَقْت فى الورع زماناً. وأكلت الحرام عياناً. وصحبتُ عُبَّاد جبل لبنان. وخالطتُ حيناً السلطان. وملكت العبيد. وحَمَلْتُ على رأسى بالزنبيل. وأشرفت مراراً على الغرق. وقُطِع على قوافلنا الطرق ... وصاحبت فى الطرق الفُسَّاق، وبعت البضائع فى الأسواق. وسُجنتُ فى الحبوس. وأُخِذْتُ على أنى جاسوس .. ولقد ذهب لى فى هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم، سوى ما دخَل على من التقصير فى أمور الشريعة .. غير أنى لم أخرج على قول الفقهاء الأئمة. ولم أؤخر صلاةً عن وقتها ألبتَّة".

وما سرت فى جادة (= طريق) وبين مدينة عشرة فراسخ مما دونها إلا فارقْتُ القافلة، وانْفَتَلْتُ إليها لأنظرها. وربما اكتريت رجالاً يصحبونى. وجعلت مسيرى فى الليل لأرجع إلى رفقائى مع إضاعة المال والهم"[1].

وهذه صورة مركزة لأنواع المعاناة التى قاساها فى رحلاته. وكان بوسعه أن يشرحها فى كتاب كبير شيق يحرص على قراءته المؤرخون ومحبو المغامرات وطلاب التسلية، لكنه آثر إيجازها فى هذه الفقرات القصار المسجوعة، وأرانا موهبة أدبية أسلوبية فريدة بين الجغرافيين.

وتكلم المقدسى عن خصائص الأقاليم بالأسلوب الموجز نفسه، فقال – على سبيل المثال– إن: "بالبصرة تجارات، وبمكة فصاحة، وبمرو دهاة، وصنعاء طيبة الهوا، وبيت المقدس حسنة البنا، وصغَر وجرجان موضع الوبا .."[2] وهكذا. ومن الواضح أن حرصه على خصائص الأسلوب الأدبى حاف على دقة التعبير العلمى. ففى كل

---

(١) كتاب أحسن التقاسيم؛ ص ٤٣–٤٥.
(٢) نفسه؛ ص ٣٢، ٣٣.

إقليم تجار، لا فى البصرة وحدها؛ وفى كل إقليم فصحاء لا فى مكة دون غيرها؛ والوباء يجتاح كل الأقاليم، لا جرجان دون خلْق الله.

المذاهب التى سادت فى عصره:

وقدم المقدسى فقرة مركزة أخرى ذكر فيها المذاهب التى كانت ذائعة فى عصره، فقال: "اعلم أن المذاهب المستعملة اليوم فى الإسلام التى لها خاص وعام ودعوة، وجمع، ثمانية وعشرون مذهباً، أربعة فى الفقه، وأربعة فى الكلام، وأربعة فى الحكم فيهما، وأربعة مندرسة. وأربعة فى الحديث. وأربعة غلب عليها أربعة. وأربعة رستاقية. فأما الفقهيات فالحنفية والمالكية والشفعوية (الشافعية)، والداودية. وأما الكلاميات فالمعتزلة والنجارية والكلابية والسالمية. وأما الذين لهم فقه الكلام فالشيعة والخوارج والكرّامية والباطنية. وأما أصحاب الحديث فالحنبلية والراهوية، والأوزاعية، والمنذرية .. إلخ "[1].

ولقد يرى البعض أن كتاباً فى تقويم البلدان ليس المجال المشروع لمثل هذه الفهارس المذهبية. لكننا يجب أن نتذكر أن المقدسى وضع فى مخططه مثل هذه البيانات. وإذا كان تقويم البلدان قد يضيق عند بعض المؤلفين حتى يصير مجرد "معجم" للبلدان، فإن المقدسى وبعض علماء الإسلام رأوا أن التقويم الشامل يجب أن يتسع لكل ما يمكن أن يظهر صورة صحيحة حية للبلدان التى يتناولها. وتلك وجهة نظر سليمة وعلمية وعادلة، وإن كانت تضيف أعباء ثقيلة على المؤلفين والقراء، لأنها تحيل المؤلِّف الجغرافى فى البلدان إلى موسوعة ثقافية، وتضطر المؤلف إلى الإيجاز الشديد، كما حدث للمقدسى فى هذه الفقرات، وتضطره أيضاً إلى عمل مختصرات أو ملخصات كما فعل هو[2].

غلبة نزعة التقسيم:

وتغلب على المقدسى أحياناً نزعة التقسيم؛ وقد جعل عنوان كتابه:

---

(١) كتاب أحسن التقاسيم؛ ص ٣٦ .
(٢) هو نفسه؛ ص ٤٧ .

أحسن التقاسيم. وقد اضطرته هذه النزعة إلى كثير من التصنع والتعسف والحيف. انظر إليه يقول:

"وقلما رأيت فقهاء أبى حنيفة ينفكون من أربع: من الرياسة مع لباقة فيها، والحفظ، والخشية، والورع. وأصحاب مالك من أربع: الثقل والبلادة والديانة والسُّنة. وأصحاب الشافعى من أربع: النظر، والشغَب، والمروَّة، والحمق. وأصحاب داود من أربع: من الكبرة، والحدة، والكلام، واليسار. والمعتزلة من أربع: من اللطافة، والدراية، والفسق، والسخرية. والشيعة من أربع: البغضة والفتنة واليسار والصيت.. إلخ"(١).

فمن ذا الذى يستطيع تسويغ هذه "الرباعيات" المصطنعة فى الملايين من الأحناف أو المالكية أو الشافعية؟ وكيف يكون المالكية أهل بلادة دون أتباع المذاهب الأخرى؟! وكيف يكون الحفظ من خصائص الأحناف وهم مشهورون بالنزعة العقلية، وسواهم لا يبارونهم فى الحفظ وهم أهل نصوص ومُتون؟!

فهذه التقسيمات - إذن - إعلان مواقف من فقيه حنفى هو المقدسى. ولا بأس من ذلك شريطة الا يشتط، ولا يحتد، وأن يسمى الأشياء بأسمائها، كأن يقول مثلاً: لماذا فضَّلتُ المذهب الحنفى على المذاهب الأخرى؟

وصف جزيرة العرب:

ويقول المقدسى فى وصفه لجزيرة العرب: "إنما بدأنا بجزيرة العرب لأن بها بيت الله الحرام ومدينة النبى ﷺ، ومنها انتشر دين الإسلام، وفيها كان الخلفاء الراشدون والأنصار والمهاجرون. وبها عُقدت رايات المسلمين، وقويت أمور الدين. وأيضاً فإن بها المشاعر والمناسك والمواقيت والمناحر، ثم هى عشرية قد ذكرها الأئمة فى دواوينهم، ولابد للمدرسين من معرفتها فى شروحهم، ولأن منها دُحِيَتْ الأرض، ودعا إبراهيم - عليه السلام - الخلق. ومع ذلك تشتمل على حدود جليلة وكور كبيرة وأعمال نفيسة".

---

(١) كتاب أحسن التقاسيم؛ ص ٤١.

فهو يقدم مسوغات تقديم الجزيرة دينيًّا، وتربويًّا وتعليميًّا، وجغرافيًّا. ويذكر ما يقع ضمنها فيقول: "ألا ترى أن الحجاز كلها، واليمن بأسرها، وبلد سبا والأحقاف، واليمامة والأشحار، وهجر وعملن[1]، والطائف ونجران، وحُنَيْن والمخلاف، وحجر صالح وديار عاد وثمود، والبئر المعطلة والقصر المشيد، وموضع إرمَ ذات العماد، وأصحاب الأخدود، وحَبْسُ شدَّاد، وقبر هود، وديار كندة وجبل طيِّئ، وبيوت الفارهين بالواد، وجبل سينا، ومدْين وشعيب، وعيون موسى، فيها؟[2] ثم يأخذ في وصف العواصم أو الأمصار والمدن، والقرى، ويحدد المسافات بينها، في طوفان من المعلومات والحقائق عن المكان والزمان والإنسان. وعن الزروع والفواكه والغلات والصناعات والأسواق والآبار والبحار والأنهار والصحارى والقفار، بما لا مزيد عليه.

إسهام فريد :

وبهذا الجهد الخارق والمثابرة المديدة، والملاحظة اليقظة، قدَّم المقدسي إسهامه الفريد في العلوم الجغرافية، ووضع اسمه على رأس قائمة العظماء، في كتابه الفذ: "كتاب أحسن التقاسيم".

تقدير الأصالة والطرافة:

وبعد ذكر بعض الملاحظات النقدية يعترف "كراتشكوفسكي" بأن: "من غير المستطاع أن يغمطه إنسان نصيبه من الفهم والذكاء وألا يعترف له بالأصالة والطرافة وقوة الملاحظة. لذا فيجب الاتفاق مع "اشبرنجر" و "كرامرس" في اعتباره جغرافيًّا عظيماً وواحداً من كبار الكتاب العرب قاطبة"[3].

ومن حقنا نحن المسلمين أن نعتز بهذا العالم الفذ. وعلينا أن نوفيه حقه من التعريف، في تعليمنا وإعلامنا وفنوننا، ونتيح الفرصة لأجيالنا أن تعرف كتابه وتعرف حياة أمتنا في ذلك العصر الزاهر، وتستمد من ذلك زاداً لحفزها على العلم والعمل كي يستعيد المسلمون مكانتهم الرائدة بين أمم الأرض.

* * *

(١) خطأ في الأصل؛ والصواب هو؛ « عَـمْلَىَ » وهو اسم موضع (راجع معجم البلدان، لياقوت الحموى).

(٢) كتاب أحسن التقاسيم؛ ص ٦٧.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ٢١٥.

● الأنموذج الثالث:
ابنُ حَوْقَل

حياته:

هو أبو القاسم محمد البغدادى الموصلى النصيبى المشهور بابن حوقل. وُلد فى بغداد، ولم يُعرف تاريخ ميلاده، لكن البعض حدده تخميناً قبل عام ٢٩٦هـ، ولم يحدد السنة، فتركنا دون إفادة مجدية.

واشتغل ابن حوقل بالتجارة فى مدينة الموصل. لكن التجارة لم تستغرقه فى تياراتها، وكان، منذ أن كان يافعاً، شغوفاً بقراءة كتب المسالك، حتى اطلع على الكتب الجليلة التى كانت معروفة فى ذلك العصر. ولم يجد فيها كتاباً مقنعاً، فعزم على أن يؤلف كتاباً يستوفى فيه مسائله ويتحاشى أخطاء السابقين. وهذه هى روح العالم الناقد الغيور على الحقيقة.

وضمنت له مهنة التجارة تكاليف الارتحال من بلد إلى بلد. وكانت بداية رحلته يوم الخميس لسبع خلون من رمضان سنة ٣٣١هـ. ومن المدهش أن يبدأ الرجل رحلة طويلة فى شهر الصيام الذى يضطر المسلمين عادة تأجيل مثل تلك الرحلة. لكن يبدو أنه ارتبط بقافلة معينة، ولم يسعه التأجيل، وهو الحريص على الشروع فى تنفيذ مخططه الطموح، فانطلق فى هجير شهر مايو سنة ٩٤٣م!

ولم يذكر ابن حوقل أنه صحب أسرته معه، ولا ذكر السِّن التى كان قد بلغها يوم الخميس ٧ / ٩ / ٣٣١هـ. ولم يحرص على بيان البلدان التى قصدها بالترتيب، ولم يحدد تواريخ وصوله إليها أو مغادرتها. ولا هو ذكر الصعوبات التى واجهها فى "تواصل السفر" و "انزعاجه عن وطنه"، حسب تعبيره، وإن أشار إلى القلاقل التى كانت تجرى فى بغداد، وتَوَاصُل الشدائد التى حاقت بأهل المشرق .. إلخ.

وبعد ثلاثين سنة من الزمان قضاها ذلك العالم المجاهد فى سفر ونصب وقلق وتعب، توفى سنة ٣٦٧هـ بعد أن أورث أمته المسلمة والعالم أجمع تلك الصورة البديعة للأرض وما عليها من بلاد وبحار وأنهار، وما تنتجه من زروع وثمار. نسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء على ما أسداه لنا من علم رصين وثقافة خصبة.

بواعثه العلمية:

ابن حوقل واحد من الجغرافيين المسلمين الأفذاذ الذين كرَّسوا حياتهم منذ الصغر فى سبيل العلم. استمع إليه يقول عن بواعثه العلمية لكتابه: "صورة الأرض": "وكان مما حَضَّنى على تأليفه وحثنى على تصنيفه، وجذبنى إلى رسمه، أنى لم أزَلْ فى حال الصبْوة شغفاً بقراءة كتب المسالك، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق، وتباينهم فى المذاهب والطرائق، وكيفية وقوع ذلك فى الهمم والرسوم والمعارف والعلوم والخصوص. وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة، والتواليف الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ فى المسالك كتاباً مقنعاً، وما رأيت فيها رسماً متبعاً، فدعانى ذلك إلى تاليف هذا الكتاب، واستنطاقى فيه وجوهاً من القول والخطاب. وأعاننى عليه تواصل السفر، وانزعاجى عن وطنى مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر، والشهوة لبلوغ الوطر، بجور السلطان، وكلب الزمان، وتواصل الشدائد على أهل المشرق والعدوان، واستئناس سلاطينه بالجور – بعد العدل – والطغيان، وكثرة الجوائح والنوائب، وتعاقب الكلف والمصائب، واختلال النِّعم، وقحط الديم".

"وقضى ثلاثين عاماً فى ترحال دائم زار خلالها –كما يبدو فى كتاباته – معظم الأماكن التى وصفها، متخذاً التجارة مهنة له"(١). لكن الشغف بالعلم لم يسمح للتجارة بأن تصرفه عن البحث والدرس. ونظرته الثاقبة كشفت له أخطاء المؤلفين السابقين، فكان تصحيح الأخطاء أحد بواعثه على تأليف كتابه. وبهذا يكتسب صفة الناقد العلمى إلى جانب صفة المؤلف، ويكشف عن روح علمية وثابة غيورة على الحقائق، انتهت به إلى تأليف: "صورة الأرض".

---

(١) ظريف رمضان مراد؛ التراث الجغرافى العربى؛ ص ٢٩ .

كتاب صورة الأرض:

يقول ابن حوقل رحمه الله عن كتابه: "كتاب صورة الأرض"(١) إنه وَصَفَ فيه: "أشكال الأرض، ومقدارها فى الطول والعرض، وأقاليم البلدان، ومحل الغامر منها والعمران، من جميع بلاد الإسلام، بتفصيل مدنها، وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها. ولم أقصد الأقاليم السبعة التى عليها قسمة الأرض، لأن الصورة الهندية التى بـ "القواذبان" – وإن كانت صحيحة – فكثيرة التخليط. وقد جَعَلْت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلاً، يحكى موضع ذلك الإقليم. ثم ذكرتُ ما يحيط به من الأماكن والبقاع، وما فى أضعافها من المدن والأصقاع، وما لها من القوانين والارتفاع، وما فيها من الأنهار والبحار، وما يُحتاج إلى معرفته من جوامع، وما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخراجات والمسافات فى الطرقات، وما فيه من المجالب والتجارات. إذْ ذلك علم يتفرد به الملوك والساسة، وأهل المروءات والسادة من جميع الطبقات"(٢).

وهذا مشروع ضخم جداً فى مجال الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الاقتصادية، والتجارية، بما يفى بحاجة الملوك والساسة. وكان أبو السَّرِىّ الحسن بن الفضل ابن أبى السَّرِىّ – الأصبهانىّ، هو الذى ألف ابن حوقل كتابه له. وقد حرص على رسم الخرائط التى بلغ عددها ١٦ خريطة، منها خريطة الأرض على شكل مستدير. وهذا إبداع أصيل له.

وطبق ابن حوقل خطته الطموحة على: ديار العرب، وبحر فارس، والمغرب، والأندلس، وصقلية، ومصر، والشام، وبحر الروم، والجزيرة، والعراق، وخوزستان، وفارس، وكرمان، والسند، وأرمينية وأذربيجان، والران، و(إقليم) الجبال، والديلم وطبرستان، وبحر الخزر، ومفازة خراسان وفارس، وسجستان، وما وراء النهر.

---

(١) طبع فى مطبعة بريل، فى مدينة ليْدن، سنة ١٩٣٨م فى أكثر من ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير.

(٢) كتاب صورة الأرض؛ ص ٢، ٣ .

وقد فصَّل القول فى وصف هذه المناطق، كما سنرى فى مثال لها. فكتب عن "فارس" من صفحة ٢٥٩ إلى صفحة ٣٠٤ (حوالى ٤٣ صفحة فى المطبوعة) وكتب عن مصر من صفحة ١٣٣ إلى صفحة ١٦٤ (٣١ صفحة فى المطبوعة) وسنرى أن هذه المساحة مكَّنته من تصوير البلاد تصويراً مفصلاً، أخاذاً.

وصف المدينة المنورة:

ويقول فى وصف المدينة المنورة: "فأما المدينة فهى أقل من نصف مكة. وهى فى حَرَّةٍ سَبِخَة الأرض. ولها نخيل كثيرة ومياه نخيلهم وزُرُوعهم من الآبار، وعليها سور. والمسجد فى نحو وسطها. وقبر النبى ﷺ من المسجد فى شرقيه، قريباً من القبلة، قريباً من الجدار الشرقى، فى بيت مرتفع، بين سقفه وسقف المسجد فُرجة. ولا باب له. وله زاويتان. والمنبر الذى كان يخطب عليه النبى ﷺ قد غُشى (غُطِّى) بمنبر آخر. والروضة أمام المنبر، بينه وبين القبر والمصلى الذى كان النبى – ﷺ وعلى بَرَرَة عِتْرَته – يصلى فيه الأعياد فى غربىّ المدينة داخل سورها. وبقيع الغَرْقَدِ خارجَ السور، بباب البقيع فى شرقىّ المدينة. وقُباء خارج المدينة على نحو ميلين إلى ما يلى القبلة. وهو مَجْمَعُ بيوت الأنصار، يشبه القرية. وأُحد جبل فى شمالىّ المدينة. وهو أقرب الجبال إليها، على نحو فرسخين منها. وبقربها مزارع فيها ضياع لأهل المدينة. ووادى العقيق فيما بينها وبين الفُرع. والفُرع من المدينة على أربعة أيام فى جنوبيّها. وبها مسجد جامع. غير أن أكثر هذه الضياع خراب فى وقتنا هذا. وكذلك حوالىَ المدينة ضياع كثيرة قد خربت. والعقيق وادٍ من المدينة فى قبلتها على أربعة أيام فى طريق مكة. وأعذبُ ماء فى الناحية آبار العقيق. ورُوى عن النبى ﷺ أن غبار المدينة أمان من الجذام، ومن أقام بها وجد فى ترابها وهوائها رائحةً ليست فى الأرائيج، طيباً، خلقةً فيها، وجوهرية لا تتغير. وهى أنقى طيناً من الطيب بـ "سابور"، وألذُّ نسيماً من نهر الأُبُلَّه"(١).

---

(١) كتاب صورة الأرض؛ جـ ١ ص ٣٠، ٣١.

وصف برقة:

ووصف "برقة" فقال: "فأما برقة فمدينة وسطة، ليست بالكبيرة الفخمة، ولا بالصغيرة الزرية، وهى أول منزل ينزله القادم من مصر إلى القيروان، وبها من التجارة وكثرة الغرباء فى كل وقت ما لا ينقطع، طلاباً لما فيها من التجارة، وعابرين عليها مُغَرِّبين ومُشرِّقين. وهى تنفرد بتجارة القطران، والجلود المجلوبة للدباغ بمصر والتمور الواصلة إليها"(١).

ويصف طرابلس فيقول: "إنها مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر، خصبة حصينة كبيرة ... وهى ناحية واسعة الكور، كثيرة الضياع والبادية، وارتفاعها دون ارتفاع برقة فى وقتنا هذا، وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره، كالخوخ الفرسك، والكمثرى، اللذين لا شبه لهما بمكان. إلى مراكب تحط ليلاً ونهاراً، وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحاً ومساءً من بلاد الروم وأرض المغرب، بضروب الأمتعة والمطاعم، وأهلها قوم مرموقون بنظافة الأغراض والثياب، والأحوال، متميزون بالتجمل فى اللباس، وحسن الصور والقصد فى المعاش، إلى مروءات ظاهرة، وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة.."(٢).

خرائط ابن حوقل وأطلسه:

ورسم ابن حوقل عدة خرائط للبلاد التى زارها، كما رسم خريطة للعالم. واعتبرت خرائطه نوعاً جديداً من الخرائط هو أقرب إلى "الكارتوجراما". وكانت خرائطه تلك فريدة فى ذلك العصر، وبخاصة "خريطة العالم". وقد استفاد من كتاب الإصطخرى: "وفى خريطته تظهر السواحل إما على شكل خطوط مستقيمة وإما على شكل أقواس من دوائر. وتظهر الجزر والبحار الداخلية – مثل بحر قزوين وبحر آرال– على هيئة دوائر كاملة. والخريطة كلها مرسومة بطريقة هندسية تخطيطية"(٢).

---

(١) كتاب صورة الأرض؛ جـ ١؛ ص ٦٦، ٦٧.
(٢) كتاب صورة الأرض؛ ص ٦٩.

واهتم ابن حوقل بعمل أطلس شامل: "فرسم لكل إقليم خارطة مستقلة، وجمع خرائطه جميعاً فى أطلس واحد. ولأطلس ابن حوقل أهمية بالغة، إذْ هو أول الأطالس الإسلامية التى يظهر فيها العالم المعروف لديه"(١). و"تقدم المادة التى جمعها لوحة طريفة لحضارة العالم الإسلامى فى ذلك العهد"(٢).

الروح العلمية:

ويلتزم ابن حوقل الموضوعية الصارمة التى تنفر من التحيز وتحرص على الحقائق المجردة. ولذلك يلفت النظر إلى أن المعلومات الجغرافية موجودة عن كل بلد: "وإن كانت المتعصبة للبلدان والقبائل جارية على خلاف ما توخَّيْته وشرعتُ فيه ورسمته من قصد لحقائقها، وإيرادها على ما هى عليه من طرائفها"(٣). وهو ينصح القراء لكتب المسالك بأن ينعموا النظر فيما يشكُّون فيه وأن يتحروا الصدق لأن فيها كثيراً من: "غشاشة الناقلين وكذب المسافرين الذين لا يعلمون، ولا قصدهم الحق فيما يبغون. ولْيعْلم (القارئ) أن الأسباب المحرضة على تأليفه، المقتضية لعمله: اللذة بالإصابة فى المقصد، والمحبة للظَّفَر بإبانة كل بلد، والذكر الجميل من أهل التحصيل فى كل مشهد"(٣).

فهذه هى الرؤية الإسلامية لعلم تقويم البلدان. إنها فى إيجاز التزام صارم وصادق بالحقائق، وحرص شديد على بلوغها، وفحص دقيق لتمييزها من الأباطيل التى تختلط بها.

وعلى هذا يقرر ابن حوقل أن مملكة إيران هى أعمر ممالك الأرض، "وأكثرها خيراً وأحسنها استقامة فى السياسة وتقويم العمارات ووفور الجبايات"(٤) فلم يتحيز لمملكة عربية وهذا هو شأن العالم الحق.

---

(١) علم الخرائط؛ ص ٢٣.
(٢) ظريف رمضان؛ التراث الجغرافى العربى؛ ص ٤٩.
(٣) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ٢٠٤.
(٤) كتاب صورة الأرض؛ ص ٤.

ابن حوقل الناقد العلمي:

وفي خاتمة "كتاب صورة الأرض" يعتذر ابن حوقل للقارئ عن كل خَلل أو زللٍ أو سَهْوٍ قد يجده في كتابه: "فالعذر إلى قارئه، ثم إلى الله تعالى، من تقصير إن كان فيه، ولأن الإنسان بجزوئيه لا يبلغ أربَه بكُليِّته إلا بتوفيق وتأييد من الحكيم المجيد"(١).

وهذا التعبير عن الاعتراف بعجز الإنسان عن بلوغ الكمال، وحاجته إلى توفيق الله وتأييده، جزء من الرؤية الإسلامية للعلوم الاجتماعية. فالإنسان محدود القدرات. وعمله قد يبلغ من الكمال درجات، لكنه يظل مع ذلك عرضة للأخطاء. وتبعاً لهذا يحصل كل جيل من العلماء على الترخيص "الشرعي" بنقْد السابقين وإكمال أعمالهم. وهكذا تتقدم العلوم.

وقد مارس ابن حوقل النقد العلمي كلما لاحت الفرصة لذلك. وفي هذه الخاتمة يشير إلى مؤلف لم يذكر اسمه، يصفه بأنه: "أشهرهم بالتأليف فيها – أي في أشكال الأرض – حكا عن بطليموس أن عرض الأرض من القطب الجنوبي إلى القطب الشمالي الذي تدور عليه "بنات نعش"، قال: واستدارة الفلك على الأرض في مكان خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة. قال: والدرجة خمس وعشرون فرسخاً، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع. والذراع أربع وعشرون إصبعاً. والأصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض ... ثم قال عن نفسه: والدنيا مَسيرَة خمسمائة عام، مائتان منها بحار، ومائتان منها قفار، وتسعون عاماً بلاد يأجوج ومأجوج، وسبعة أعوام بلاد السودان، وثلاثة أعوام لسائر الخلْق .."(٢).

فيقول ابن حوقل: "فأخطأ في أول قوله من ذكره الدنيا، وهو يريد الأرض"!

والدنيا في لغة العرب: الحياة الدنيا، وما ضَاهَى ذلك على طريق الاستعارة، أو كقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾[الأنفال: ٤٢].

---

(١) خاتمة: "كتاب صورة الأرض"؛ ص ٥٢٦.
(٢) نفسه؛ ص ٥٢٧.

فكلام ذلك المؤلف: "عامّى ركيك، مرتبك، لا يثبت، ولا يمتسك، ولا يعرف للممالك حقيقة، ولا من الأرض وُجهة ولا طريقة. وَيْحَهُ! أين بلد ياجوج وماجوج الذى هو تسعون عاماً، وجميع بلاد ولد "يافث"، مع ما ليأجوج وماجوج منها لا يبلغ مائتى مرحلة؟ وهى من وسط المشارق إلى آخر الشمال مما يجاور بعض بلد الروم على سيف البحر المحيط؟ وأين بلد السودان الذى طوله سبعة أعوام؟ فى السماء أم تحت الأرض؟ وجميع بلدهم فى الإقليم الثانى وأوله على البحر المحيط: غانه، ثم كوغه، ثم سامه، ثم غريوا، ثم كزم، ومعهم - بعد المفازة التى بين الزنج والبحر المحيط - النوبة والحبشة والزنج. ويُعبر إلى باقى سهمتهم من بلد الهند بحر فارس والهند. وجميع أرضهم لا تزيد على خمسين ومائتى مرحلة طولاً، وأكثر عروض ممالكهم شهراً أو نحوه. وأين ممالك جميع أهل الكفر فى جنب ما للإسلام من البحر المحيط بالمغرب إلى نحو البحر المحيط بالمشرق، ما عَدَدْتُه ووصفْتُه وشكلتُه، وجميعه لا تبلغ مسافته أربعمائة مرحلة على الحقيقة؟ ومَن أجَدَّ به سَيْرُه ورُزق السلامة، قَطَعَه فى سنة، مع التوفيق. اللهم تجاوز عنا، واتركْه، ولا تؤاخذْه، إنك مجيب قريب"(١).

١- فهو يأخذ على ذلك المؤلِّف الخلط بين المصطلح الجغرافى "الأرض" وبين "الدنيا".

٢- ويأخذ عليه أسلوبه العامّى الركيك المضطرب.

٣- ويأخذ عليه سوء خرائطه التى أخطأت فى تصوير بلد يأجوج ومأجوج، وكذلك بلد السودان. وهذا أمر عجيب جداً، خصوصاً أرض السودان.

٤- ويأخذ عليه الانتقاص من بلدان الإسلام بالمقارنة ببلدان الكفر.

وهذه الانتقادات - خصوصاً الثالث والرابع - تسقط قيمة ذلك العمل الجغرافى. لكن التحقق من صحة الانتقادات يتطلب معرفة ذلك المؤلَّف ومؤلفه ووحدة القياس عنده. وابن حوقل لم يذكر ذلك، ولا يستطيع الباحث اليوم أن يجازف بالتخمين،

---

(١) خاتمة: "كتاب صورة الأرض"؛ ص ٥٢٨.

فيقترح هذا الاسم أو ذاك، ولا أن ينضم إلى ابن حوقل دون أن يطلع على نص كلام المؤلف المنقود. فهذا هو ما يتطلبه النقد العلمي الموضوعي المنصف.

نقد في غير محله:

وفي أثناء حديثه عن صقلية [1] يتطرق ابن حوقل إلى موضوعات عديدة، ويبدي فيها آراء قاطعة، لا أظن أحداً يوافقه فيها. من ذلك – مثلاً – قوله: "وأكثر مياه البلد والحارات من الآبار، ثقيلة غير مَرِئَة. وإنما صرفهم إلى شربها رغبةً عن شرب الماء الجاري العذب، قلّةُ مروءاتهم، وكثرة أكلهم البصل، وفساد حواسهم بكثرة تغذيهم بالنِّيِّ منه. وما فيهم من لا يأكله كل يوم، أو يؤكل في داره صباحَ مساء، من سائر طبقاتهم. وهو الذي أفسد تخيلهم وضَرَّ أدمغتهم، وحَيَّر حواسهم، وغَيَّر عقولهم، ونقص أفهامهم، وبلَّد معارفهم، وأفسد سحْنَة وجوههم، وأحال أمزجتهم حتى رأوا الأشياء أو أكثرها على خلاف ما هي به"[2].

فهذه التعميمات الجزافية في الرأي والبرهان لا مسوغ لها. وهي خروج ممقوت عن موضوع البحث. إن له أن يذكر آبار البلد، ونوعية مائه، وعدم استساغته له. لكن أسباب رغبة القوم في شربها غير معقولة، وهي تعسف في التفسير، يشوِّه "الموسوعة الثقافية". وكذلك آثار أكل البصل كما صورها ابن حوقل خرافية!

وفي حديثه عن صقلية ينقد فئة المعلمين بقسوة، فيقول: "والغالب على البلد المعلمون. والمكاتب به في كل مكان. وهم فيه على طبقات مختلفة ومنازل شتى متباينة، من الصُّراع والخُباط، على ما يفوق جنون معلمي كل بلد، وحمقى كل ناحية، حتى أنهم المتكلمون على السلطان في سَيْره واختياراته، والإطلاق بالقبائح من ألسنتهم بمعائبه، وإضافة محاسنه إلى قبائحه"[3].

وأحسب أن كثرة المكاتب والمعلمين ليست سوءة. ومن المستحيل تعميم صفات الصراع والخباط والحمق على الجميع. وأما نقدهم للسلطان فقد يكون بحق وقد يكون بباطل. وكان على ابن حوقل أن يفصل القول في ذلك، أو يصمت. وقد أشار هو إلى جور السلاطين في بلاده وفي بلاد الشرق عامة[4].

---

(١) من ص ١١٨– ١٢١.
(٢) ص ١٢٣–١٢٤.
(٣) صورة العالم؛ ص ١٢٦.
(٤) نفسه؛ المقدمة.

وأنا آخذ على ابن حوقل أنه أغفل ذكر تواريخ سفره من بلد إلى آخر.

ابن حوقل والإصطخرى:

وقد أثار بعض الدارسين قضية تأثر ابن حوقل بما جاء فى كتاب الإصطخرى[١]. ويذكر أن ابن حوقل لقى الإصطخرى وتحدث إليه، وأن الإصطخرى أعطاه كتابه: "مسالك الممالك" لإصلاحه وإكماله بحرية تامة[٢].

وهكذا يقال إن: "كتاب صورة الأرض" لابن حوقل ما هو إلا نسخة منقحة من كتاب الإصطخرى[٣]. أى أن ابن حوقل سرق كتاب الإصطخرى، وأضاف إليه بعض الإضافات وسماه "كتاب صورة الأرض"، ونسبه إلى نفسه!

إن هذا المذهب فى النقد متأثر بفضائح السرقات العلمية والأدبية التى ذاعت فى العصور الحديثة، وطالت عباقرة المؤلفين من أمثال شكسبير الأديب البريطانى الكبير والمؤلف المسرحى الفذ. بل إن غلاة المستشرقين اتبعوا هذا المذهب فى حربهم ضد الإسلام ورجاله وعلمائه، حتى اتهموا الرسول بأنه أخذ القرآن عن حداد جاهل فى مكة أو عن كاهن نصرانى اسمه بحيرى[٤].

وأنا أتساءل: ألم يُعد ابن حوقل كتابَ "مسالك الممالك" بعد إصلاحه وإكماله إلى الإصطخرى؟ من المؤكد أنه أعاده إليه، مع بعض الملاحظات. وربما قَبِلَ الإصطخرى بعضها ورفض البعض الآخر. وهذا ما يحدث عادة بين المؤلفين الكبار الذين يحرصون على الاستئناس بآراء أقرانهم قبل نشر مؤلفاتهم على الناس بما قد يكون فيها من أخطاء.

ولا بد أن أتساءل مرة أخرى: هل كان ابن حوقل قد أتم كتابه حين لقى الإصطخرى؟ أم أنه لم يكن قد شرع فى كتابه بعدُ؟ وكيف عرف الإصطخرى أن ابن حوقل قادر على تصحيح أخطائه؟

الأرجح أنه عرف ذلك بعد ما اطلع على كتاب ابن حوقل (صورة الأرض)، وأعجب به، ووثق من أمانته. وعلى هذا ائتمنه على تصحيح كتابه.

---

(١) الإصطخرى؛ مسالك الممالك؛ ليدن سنة ١٩٣٧ - كراتشكوفسكى؛ ص ٢٠١.
(٢) ظريف رمضان مراد؛ التراث الجغرافى العربى؛ ص ١١٣.
(٣) الموضع نفسه.
(٤) سيرة ابن هشام؛ جـ ١ ص ١٨٠.

إذن هذه الحادثة ترفع من قدر ابن حوقل ولا تسيئ إليه.

وإذا قيل إن بعض الجمل بنصها وجدت فى كتاب الإصطخرى وفى كتاب ابن حوقل؛ ألا يعنى ذلك أن ابن حوقل اقتبسها من كتاب الإصطخرى؟

لا بد أن نتذكر أن ابن حوقل قرأ: "الكتب الجليلة المعروفة، والتواليف الشريفة الموصوفة، "فلم أقرأ فى المسالك كتاباً مقنعاً." حسب تعبيره [1] ولا ريب أن بعض المعارف التى قرأها قد راقتْه فاقتبسها، شأنه شأن سائر المؤلفين. ولا ريب أنه تأثر بما قرأ. فلماذا لا يكون كتاب الإصطخرى مجرد كتاب مثل تلك الكتب التى استفاد منها ابن حوقل بعض المعارف، ورفض بعض الأخطاء؟

ولابد أن نتذكر أن الإصطخرى لا يمكن أن يطلب من أى مؤلف عادى أن يراجع له كتابه ! إنه لم يطلب من ابن حوقل تصحيحه وإكماله إلا لثقته فى علمه وأمانته. ولو شك لحظة أنه يمكن أن ينسبه إلى نفسه زوراً لما سلمه إليه.

تقدير:

وفى ضوء هذه الحقائق لا أجد مسوغاً للجَلَبة التى أثارها بعض المؤلفين حول تأثر ابن حوقل بكتاب الإصطخرى، وكل ما حدث لا يقدح فى عظمة ابن حوقل كمؤلف جغرافى أصيل ومبدع، بل يؤكد لنا عظمته ورسوخ قدمه فى العلم الجغرافى. ويكفيه فخراً أنه أنفق ربع قرن فى تأليف دُرَّته العلمية الباهرة "صورة الأرض" التى تختال بها مكتباتنا التراثية هذه الأيام.

ولولا عظمة "كتاب صورة الأرض" والثقة فى مؤلفه لما أقبل عليه الجغرافيون المسلمون والأجانب ينهلون من معينه الصافى الخصيب. وقد أخذ المقدسى والإدريسى من "كتاب صورة الأرض" لابن حوقل[2]. ونقل عنه غيرهم كثير. وهذا مسلك علمى طبيعى إزاء مرجع كبير من تراثنا.

نسأل الله تعالى أن يتغمد ابن حوقل برحمته ويجزيه خير الجزاء على ما قدمه لأمته المسلمة من علم ومعرفة.

---

(١) صورة الأرض؛ المقدمة؛ ص ٣.

(٢) ظريف رمضان؛ التراث الجغرافى العربى؛ ص ١٢٠ "صورة الأرض"؛ المقدمة؛ جـ ١ ص ١١.

● الأنموذج الرابع:
ياقُوت الحَمَوى

حياته:

هو الشيخ شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموى الرومى البغدادى (ولد سنة ٥٧٥هـ - ١١٧٩م). أُخِذَ أسيراً وهو لا يزال صغيراً، وسِيقَ من بلاد الروم إلى بغداد، حيث اشتراه تاجر يدعى عسكر الحموى، وهذا سبب نسبة الحموى إليه[١].

وأرسل عسكر الحموى فتاه إلى الكتاب. فتعلم شيئاً من مبادئ النحو والحساب. واستفاد الحموى من فتاه المتعلم، ليقيد له تجارته.

ولأسباب غير معروفة، أعتق التاجر فتاه فلم يجد الفتى غير نسخ الكتب حرفة يرتزق منها. وهكذا اطلع "ياقوت" على كثير من الكتب التى كانت معروفة فى القرن السادس الهجرى والربع الأول من القرن السابع، إلى أن توفى ياقوت سنة ٦٢٦هـ.

ثم عاد "ياقوت" إلى العمل مع "عسكر" فى تجارته. وسافر "ياقوت" فى تجارة سيِّده. وحين عاد وَجَدَه قد لحق بالرفيق الأعلى.

ومارس "ياقوت" التجارة لحسابه الخاص. وبعد تنقلات بين البلاد، استقر فى خوارزم حتى أغَارَ عليها جنكيز خان سلطان المغول سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م)، فتركها إلى الموصل مخَلِّفاً ممتلكاته فيها. ومن الموصل اتجه إلى حلب حيث لقى عطف الوزير الفيلسوف ابن القفطى (توفى عام ٦٤٦-١٢٤٨م) وزير الظاهر بن صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب، فيسر له العمل فى معجمه بضعة أعوام، ثم غادرها إلى فلسطين ومصر، ثم رجع إلى حلب وتوفى فيها فى ٢٠/٨/١٢٢٩م - ٦٢٦هـ[٢].

---

(١) راجع: كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ٣٣٨ .
(٢) نفسه؛ ص ٣٣٩ .

ومن المؤكد أن مهنة النَّسْخ هيأت له الظروف ليتعلم؛ ثم يجمع المعلومات التى شغف بها عن "البلدان"، وأسهمت رحلاته التجارية فى إنضاج عبقريته، ويسَّرت له السفر والوقوف على حقائق الحياة فى بلاد عديدة، لكى ينجز هذه الموسوعة الثقافية الخصيبة: "معجم البلدان"، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن أمته المسلمة خير الجزاء.

ويقول كراتشكوفسكى: "وأمام الظروف القاسية التى اكتنفت الأعوام الأخيرة من حياته يجب أن نعجب – لا للعدد الضئيل من الأخطاء الذى وجد الطريق إلى مصنفاته – بل لعدد هذه المصنفات الكبير وقيمتها العالية التى لا يتطرق إليها الشك. ويحتل المكانة الأولى بينها – من وجهة نظرنا دون منازع – معجمه الجغرافى الكبير"(١).

"معجم البلدان"

ارتباط الزمان بالمكان:

إن ارتباط الزمان بالمكان حقيقة راسخة. ولذلك ارتبط التاريخ بالجغرافيا.

فلكل موجود فى العالم مكان وتاريخ؛ أعنى أن له بداية وامتداد أو حياة، أو تاريخ. ومن الممكن نظريًّا على الأقل معرفة تاريخ الأشياء من البداية إلى النهاية. فإذا لم نستطع أن نحصِّل تلك المعرفة، فذلك لعجزنا نحن، لا لعدم وجودها.

وقد استجاب "ياقوت" لهذه الحقيقة، فربط الزمان بالمكان، أو التاريخ بالجغرافيا قدْر استطاعته، وقدْر الحاجة إلى ذلك، وقليلاً ما اكتفى بالجغرافيا منفصلة عن التاريخ، كأن يقول مثلاً:

"خَرْقٌ: بفتح أوله، وتسكين ثانيه، وآخره قاف: قرية من أعمال نيسابور"(٢).

و"دَكْمَة: بفتح أوله، وسكون ثانيه: بلدة بالمغرب من أعمال بنى حماد"(٣).

---

(١) راجع: كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ٣٣٨.
(٢) المعجم؛ جـ٢ ص ٣٦٠.
(٣) نفسه؛ ص ٤٥٩

و"مِيْبَر": بالكسر ثم السكون، وفتح الباء الموحدة، وراء: موضع"(١).

لكن أغلبية مواد المعجم مرتبطة بتاريخها، ولغتها، وثقافتها. وفيما يلى مثال يبيِّن هذه الحقيقة؛ قال "ياقوت":

الإيوان: آخره نون. وهو إيوان كِسْرَى. قال النحويون: الهمزة فى "إيوان" أصل، غير زائدة. ولو كانت زائدة لَوَجَبَ إدْغام "الياء" فى "الواو" وقلْبها إلى "الياء"، كما فى "أيَّام". فلما ظهرت "الياء" ولم تُدْغَم، دَلَّ على أن "الياء" عَيْن، وأن "الفاء" همزة، وقُلبت "ياء" لكسرة "الفاء" وكراهية التضعيف، كما قُلبت فى: "ديوان" و"قيراط". وكما أن "الدال" و"القاف" فاءان، و"الياءيْن" عَيْنان، كذلك التى فى إيوان"(٢).

هذا هو القرين اللغوى للمادة، والذى يهم اللغويين بصفة أساسية. وبعده يأتى التاريخ، فيقول "ياقوت":

"وإيوان كِسْرى الذى بالمدائن – مدائن كسرى – زعموا أنه تعَاوَنَ على بنائه عدة ملوك. وهو من أعظم الأبنية وأعلاها. رأيتُه وقد بقى منه طاق الإيوان حَسْبُ. وهو مبنى بآجُرٍ، طول كل آجُرَّة نحو ذراع، فى عرض أقل من شبر. وهو عظيم جداً. قال حمزة بن الحسن: قرأتُ فى الكتاب الذى نقله ابن المُقفَّع أن الإيوان الباقى بالمدائن هو من بناء "سابور بن أرْدَشير"، فقال لى "المُوبَذَان" – "مُوبَذَان بن أسُوهَسْت": ليس الأمر كما زعم ابن المُقفَّع، فإن ذلك الإيوان خرَّبه المنصور أبو جعفر، وهذا الباقى منه من بناء كِسرى أبْرَويز. وقد حُكى أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن بَرْمَك فى هدم الإيوان وإدخال آلته فى عمارة بغداد، فقال له: لا تفعل يا أمير المؤمنين. فقال: أبَيْتَ إلا التعصب للفرس؟ فقال: ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين، ولكنه أثر عظيم يدل على أن مِلَّةً ودِيناً وقوماً أذْهَبُوا مُلْك بانيه، لدِينٌ ومَلِكٌ عظيم! فلم يُصْغ إلى رأيه، وأمر بهدمه، فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنقضه،

---

(١) المعجم جـ٥ ص ٢٤١.
(٢) المعجم جـ١ ص ٢٩٤.

فتركه" .. "وما زلتُ أسمع أن كِسرى لما أراد بناء إيوانه هذا أمر بشراء ما حوله من مساكن الناس، وإرغابهم بالثمن الوافر، وإدخاله فى الإيوان، وأنه كان فى جواره عجوزٌ لها دُوَيرةٌ صغيرة، فأرادوها على بيعها فامتنعت وقالت: ما كنتُ لأبيع جوار الملك بالدنيا جميعها! فاسْتحسن منها هذا الكلام وأمر ببناء الإيوان، وترك دارها فى موضعها منه وإحكام عمارتها." فيقول ياقوت: "ولما رأيتُ الإيوان رأيتُ فى جانب منه قبة صغيرة محكمة العمارة يعرفها أهل تلك الناحية بقبة العجوز، فعَجِبْتُ من قوم كان هذا مذهبهم فى العدل والرفق بالرعية، كيف ذهبت دولتهم! لولا النبوة التى شرفها الله تعالى وشرف بها عباده"(١).

هذا الاقتباس الطويل سُدسُ ما كتبه ياقوت عن "الإيوان". وبقية ما كتبه قصائد شعر لابن الحاجب وأبى عبادة البُحتُرى.

وهكذا تمتزج المادة المعجمية بالمواد اللغوية والتاريخية والأدبية والدينية، وبذلك يصبح المعجم: موسوعة ثقافية.

تقدير كراتشكوفسكى:

فيقول كراتشكوفسكى إن: "أهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة، فهو فوق ذلك يمثل آخر انعكاس لتلك الوحدة المثالية للعالم الإسلامى تحت حكم العباسيين، على الرغم من أنها كانت فى واقع الأحوال أثراً من الماضى. وهو أوسع وأهم، بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربى للعصور الوسطى"(٢).

وقال كراتشكوفسكى عن ياقوت: "إنه كاتب مدقق، مجتهد، ندين له بحفظ آثار قيمة فى تاريخ وجغرافيا العصور الوسطى، وهو قد أبدى الكثير من الغيْرة والحماس فى دراسة الأوضاع الجغرافية والإثنوغرافية والسياسية لعصره"(٣).

---

(١) المعجم؛ جـ ١ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
(٢) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ٣٣٥ .
(٣) نفسه؛ ص ٣٣٦ .

ويقول كراتشكوفسكى أيضاً إن: "سيرة حياة ياقوت ليست بأقل أهمية من مصنَّفه، وهى برهان آخر على سعة الأفق والعبقرية التى تميزت بها الشخصيات العلمية التى شَادَت بمصنفاتها الصرح الهائل للحضارة العربية"(١).

"معجم البلدان" فى خدمة العلم:

نعم "معجم البلدان" سفْر ضخم وموسوعة علمية إسلامية وعربية هائلة، يقع فى خمسة مجلدات(٢) زاد عدد صفحاتها على ٢٣٨٠ صفحة من القطع الكبير، والبنط الصغير. وهو إسهام عظيم خالد، يضع صاحبه فى القمة بين المؤلفين المسلمين. ودور هذا المعجم حيوى جداً لدى كل مهتم بالثقافة العربية والعلوم الإسلامية. فما من دارس للتفسير أو الحديث أو الفقه الإسلامى، أو التاريخ، أو الجغرافيا، أو الحضارة، أو الشعر أو النثر، أو التراجم والسيَر، إلا رجع إليه واستفاد منه. فهل ثمة إسهام علمى أعظم من هذا ؟

يقول "ياقوت": "وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب أننى سُئلت بـ "مَرْو الشاهجان" فى سنة خمس عشرة وستمائة، فى مجلس شيخنا الإمام السعيد الشهيد فخر الدين أبى المظفر عبدالرحيم ابن الإمام الحافظ تاج الإسلام أبى سعد عبد الكريم السمعانى، تغمدهما الله برحمته ورضوانه، وقد فُعِل الدعاء إن شاء الله، عن حُبَاشَة – اسم موضع جاء فى الحديث النبوى، وهو سُوق من أسواق العرب فى الجاهلية، فقلت: أرى أنه حُباشة، بضم الحاء، قياساً على أصل هذه اللفظة فى اللغة، لأن الحُباشة: الجماعة من الناس من قبائل شتى. وحَبَشْتُ له حُباشَةً أى جمعت له شيئاً، فانْبَرَى لى رجلٌ من المحدِّثين وقال: إنما هو حَبَاشة، بالفتح، وصمم على ذلك وكابر، وجاهر بالعناد من غير حجة ونظر. فأردتُ قطع الاحتجاج بالنقل، إذْ لا معوَّلَ فى مثل هذا على اشتقاق ولا عقل، فاسْتعصى كشفه فى كتب غرائب الأحاديث، ودواوين اللغات، مع سعة الكتب التى كانت بـ "مَرْو" يومئذ، وكثرة وجودها فى

---

(١) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ٣٣٧ .
(٢) فى طبعة دار صادر؛ بيروت.

الوقوف (= جمع وقف)، وسهولة تناولها، فلم أظفر به إلا بعد انقضاء ذلك الشَّغَب والمراء، ويأسٍ من وجوده ببحث واقتراء، فكان موافقاً والحمد لله لما قلتُه، ومكيلاً بالصاع الذى كِلْتُه، فأُلْقِىَ فى رُوعى افتقارُ العالم إلى كتاب فى هذا الشأن مضبوطاً، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد مخطوطاً، ليكون فى مثل هذه الظلمة هادياً، وإلى ضوء الصواب داعياً، ونُبِّهْتُ على هذه الفضيلة النبيلة، وشُرح صدرى لنيْل هذه المنْقَبة التى غفل عنها الأولون، ولم يهتدِ لها الغابرون: يقول من تقرعُ أسماعَهُ: كم ترك الأول للآخر. وما أحسن ما قال أبو عثمان: ليس على العلم أضرُّ من قولهم: "لم يترك الأولُ للآخر شيئاً"، فإنه يُفتِرُ الهمَّة، ويضعف المُنة .."[1].

إذن أول البواعث التى حركت همَّة "ياقوت" لتأليف "معجم البلدان" الاختلاف حول ضبط لفظ ورد فى حديث شريف. ومنذ أن عرف العلماء المسلمون فى كل فروع العلم كتاب "معجم البلدان"، وهم ينهلون منه، وإلى يوم الناس هذا. فهو يقدم لهم أسماء البلدان والمدن والقرى، والسهول والجبال، والبحار والأنهار، والصحارى والقفار، مضبوطة، وبذلك يحسم كثيراً من الخلافات بينهم.

وقد وردت أسماء البلدان فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف، فاحتاج المفسرون إلى معجم ياقوت، واحتاج إليه المحدِّثون، ووجدوا فيه خير عون لهم.

وعلى سبيل المثال، فى تحقيق كتاب "البلدان" لليعقوبى، رجع المحقق إلى "معجم البلدان" مئات المرات، بمتوسط مرة فى هامش كل صفحة، يعنى حوالى ٢٢٠ مرة. وفى بعض الصفحات يرد مرتين، وفى البعض الآخر يرد ثلاث مرات.

صفة الأرض لدى القدماء:

وقد عرض "ياقوت" صفة الأرض لدى القدماء، وقول بعضهم إنها مسطحة، وقول آخرين إنها كهيئة المائدة، وزعْم آخرين أنها كهيئة الطبل، وزعم بعضهم أنها شبيهة بنصف الكرة كهيئة القبة. وهذه كلها مزاعم باطلة، كما يخبرنا العلم الحديث.

---

(١) ياقوت الحموى؛ معجم البلدان؛ جـ١ ص ١٠، ١١.

ولكن بعض القدماء قال: "إن الذى يُرى من دوران الكواكب إنما هو دَوْرُ الأرض، لا دَوْرُ الفلك"(١). وهذا هو الصواب. ثم قال "ياقوت": "والذى يَعْتمد عليه جماهيرهم أن الأرض مدورة كتدوير الكرة، موضوعة فى جوف الفلك كالمُحَّة فى جوف البيضة، والنسيم حول الأرض جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك، وبينه الخلْق على الأرض، وأن النسيم جاذب لما فى أبدانهم من الخفة، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل، لأن الأرض بمنزلة حجر المغناطيس الذى يجتذب الحديد؛ وما فيها – من الحيوان وغيره – بمنزلة الحديد"(٢).

وهكذا لاحت لهم فكرة الجاذبية.

ثم انتهى "ياقوت" إلى القول: "وأصلح ما رأيت فى ذلك وأسَدُّه – فى رأيى – ما حكاه محمد بن أحمد الخوارزمى، قال: الأرض وسط السماء. والوسط هو السُّفل بالحقيقة. والأرض مُدوَّرة بالكلية، مضَرَّسة بالجزئية من جهة الجبال البارزة والوهدات الغائرة. ولا يخرجها ذلك من الكُرِيَّة، إذا وقع الحس منها على الجملة، لأن مقادير الجبال – وإن شَمخت – صغيرة بالقياس إلى كل الأرض. ألا ترى أن الكرة التى قطرها ذراع أو ذراعان إذا نتأ منها كالجاورسات وغار فيها أمثالها، لم يمنع ذلك من إجراء المدوَّر عليها بالتقريب؟ ولولا هذا التضريس لأحاط بها الماء من جميع الجوانب... وصار مجموع الماء والأرض كُرة واحدة يحيط بها الهواء من جميع جهاتها.."(٣).

وهكذا نضجت لديهم فكرة كروية الأرض نضوجاً كبيراً. وبهذا سبقوا أوربا بزمان طويل. لكن الفكرة الصائبة – أى كروية الأرض – ظلت مرفوضة فى الأوساط البدوية إلى أوائل القرن الخامس عشر الهجرى، على الرغم من إشارة القرآن الكريم الواضحة إليها فى الآية رقم ٥ من سورة الزمر.

وكان "الكندى" – الذى توفى سنة ١٨٥هـ – قد ألف كتاباً فى إثبات كروية الأرض.

---

(١) معجم البلدان؛ جـ ١ – الباب الأول – ص ١٦.
(٢) نفس الموضع.
(٣) نفسه؛ ص ١٧، ١٨.

المعجم موسوعة ثقافية:

إن "معجم البلدان" هو الاسم الذى ارتضاه "ياقوت" لهذا السفر الكبير؛ لكننا نجده موسوعة ثقافية، لا مجرد "معجم" يعرفنا بالبلدان وبأهلها وبالمسافات التى تفصل بينها، كما هو شأن المعاجم. "ياقوت" يقرر أن عمله: "كتاب فى أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغُدران والأصنام والأبداد والأوثان".

وقد شمل كتابه عدداً كبيراً جدًّا من البلدان. لكنه لم يقف عند أسماء البلدان والجبال والأودية .. إلخ، وإنما أضاف إليها معارف ومعلومات شتى كثيرة – دينية وأدبية وتاريخية وجغرافية وعلمية. ولذلك اتسع "معجمه"، وشَقَّ على البعض أخْذُه بكليته، وطلب البعض من "ياقوت" اختصاره: "فأبَيْتُ، ولم أجد لى على قِصَرِ هممهم أولياءَ ولا أنصاراً، فما انْقَدْتُ لهم، ولا ارْعَوَيْتُ. ولى على ناقلِ هذا الكتاب والمستفيد منه أن لا يضيِّع نَصَبى، ونَصَبَ نفسى له وتعبى، بتبديد ما جمعتُ، وتشتيت ما لفَّقْتُ، وتفريق ملتئم محاسنه، ونفى كلَّ عَلَقٍ نفيسٍ عن معادنه ومكامنه، باقتضابه واختصاره، وتعطيل جيده من حُليِّه وأنواره، وغَصْبه إعلان فضله وأسراره. فرُبَّ راغبٍ عن كلمةٍ غيرُه متهالك عليها، وزاهد عن نكتة غيره مشغوف بها، يُنْضَى الركاب إليها. فإن أجبتنى بَرَرْتنى – جعلك اللهُ من الأبرار! وإن خالفتنى فقد عَقَقْتنى، والله حسيبك فى عُقبى الدار!"(١).

ويخيَّل إلىّ أن طلاب الاختصار يريدون "المعجم" بدون الثروة الثقافية التى حشدها "ياقوت" حول أسماء البلدان والجبال والأودية. وقد رفض ذلك فى إصرار، ولم يجد مسوِّغاً للاختصار، وعزَّ عليه جهده الجهيد ومثابرته، ومصابرته، السنين الطوال، أن تضيع هباء، ولا يبقى من الثروة الثقافية الهائلة شىء سوى "العظام"! أعنى أسماء البلدان!

والحق أن الخطة الأولى التى قررها "ياقوت" بعد الخلاف على لفظ "حُباشة"

---

(١) معجم البلدان؛ المقدمة؛ جـ ١ ص ١٣، ١٤.

كانت تأليف كتاب: "في هذا الشأن مضبوطاً، ، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد مخطوطاً، ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً، وإلى ضوء الصواب داعياً"[1]. لكنه حين شرع في العمل، وجد الكتب التي كان يشتغل بنسخها زاخرة بالمعارف والعلوم، ووجد كل اسم مزروع في بستان بهيج من المعارف والثقافات، فاغترف منها، وشيد موسوعته الثقافية الرائعة التي سماها "معجم البلدان"، ونسي أن يضيف شيئاً إلى الاسم يبيِّن التغيير الهائل في الخطة. والحمد لله أنه لم يقف عند حدود تلك الخطة الأولى التي كانت كفيلة بحرمان الأمة المسلمة من هذه الموسوعة الثقافية الباهرة.

وصف البصرة وتاريخها:

ونحن نأخذ تعريفه للبصرة كمثال، فهو يقول[2]:

"وهما بصرتان: العظمى بالعراق، وأخرى بالمغرب. وأنا أبدأ أولاً بالعظمى التي بالعراق .. قال المنجمون: البصرة طولها أربع وستون درجة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة. وهي في الإقليم الثالث. قال ابن الأنباري: البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة .. وذكر الشرقي بن القطامي أن المسلمين حين وَافَوْا مكان البصرة للنزول بها، نظروا إليها من بعيد، وأبصروا الحصى عليها فقالوا: إن هذه أرضٌ بَصرةٌ، يعنون حَصْبَة، فسميت بذلك".

وقال ياقوت: "وأما النَّسب إليها فقال بعض أهل اللغة: إنما قيل في النسب إليها بِصْرِيٌّ، بكسر الباء لإسقاط الهاء .." .. "وأما فتحها وتصييرها فقد رَوَى أهل الأثر عن نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي وغيره أن عمر بن الخطاب أراد أن يتخذ للمسلمين مِصْراً، وكان المسلمون قد غَزوا من قبل البحرين – تَوَّجَ ونوبندَجان وطاسان – فلما فتحوها كتبوا إليه: إنا وجدنا بطاسان مكاناً لا بأس به. فكتب إليهم: إن بيني وبينكم دِجْلَة. لا حاجة في شيء بيني وبينه دِجلة أن تتخذوه مِصْراً. ثم قدم عليه رجل من بني سدُوس يقال له ثابت، فقال: يا أمير المؤمنين إني مررت بمكان دون

---

(١) ياقوت الحموي؛ معجم البلدان؛ جـ١ ص ١٠ .
(٢) بشيء من التصرف.

دجلة فيه قصْر، وفيه مَسَالِحَ للعجم (معسكرات) يقال له: الخُرَيْبَة ويسمى أيضاً البُصْرة، بينه وبين دجلة أربعة فراسخ، له خليج مجرىً فيه الماء إلى أجَمَة قَصَب. فأعجب ذلك عمر .. فلما قدم خالد بن الوليد البصرة من اليمامة والبحرين، مجتازاً إلى الكوفة بالحيرة، سنة اثنتى عشرة: وأبْصَرتْنا الديادبة (رجال الفرس) خرجوا هُرَّاباً. وجئنا القصر فنزلناه. قال عتبة بن غزوان بن جابر – الذى ولاّه عمر على البصرة: ارتادوا لنا شيئاً ناكله. قال: فدخلنا الأجَمَة فإذا زِنبيلان فى أحدهما تمر وفى الآخر أرز بقشره، فجذبناهما حتى أدْنَيْنَاهما من القصر، وأخرجنا ما فيهما. فقال عتبة: هذا سمٌّ أعده لكم العدو، يعنى الأرز، فلا تقرُبُنَّه! فأخرجنا التمر وجعلنا نأكل منه. فإننا لكذلك إذا بفرس قد قطع قياده وأتى ذلك الأرز يأكل منه! فلقد رأينا أن نسعى بشِفارِنا (سلاحنا) نريد ذَبْحَه قبل أن يموت، فقال صاحبه: أمسكوا عنه، أحْرسُه الليلة، فإن أحسستُ بموته ذبحته. فلما أصبحنا إذا الفرَس يروثُ لا بأس عليه، فقالت أختى: يا أخى! إنى سمعتُ أبى يقول: إن السم لا يضر إذا نَضِجَ. فأخَذَتْ من الأرز تُوقد تحته، ثم نادت: ألا إنه يتفَصَّى من حُبَيْبَة حمراء. ثم قالت: قد جَعَلتْ تكون بيضاء. فما زالت تطبخه حتى انْماطَ قشرُه، فألقيناه فى الجَفْنة (الوعاء)، فقال عتبة: اذكروا اسم الله عليه وكلوه. فأكلوا منه فإذا هو طيب."

"قال: وبَنَى المسلمون بالبصرة سبع دَسَاكر، اثنتان بالخُريبة واثنتان بالزابوقة، وثلاث فى موضع دار الأزد اليوم .. ففرَّق أصحابه فيها ونزل هو الخريبة. قال نافع: ولما بَلَغْنا ستمائة (رجل) قلنا: ألا نسير إلى الأُبُلَّة فإنها مدينة حصينة. فسرنا إليها ومعنا العَنَزُ – وهى جمع عَنَزة، وهى أطول من العصا وأقصر من الرمح، وفى رأسها زُجّ – وسيوفنا. وجعلنا للنساء رايات على قصب وأمرناهن أن يثرن التراب وراءنا حين يرون أنا قد دَنَوْنا من المدينة. فلما دنونا منها صَفَفْنا أصحابنا. قال: وفيها ديادبتهم، وقد أعدوا السُّفن فى دجلة، فخرجوا إلينا فى الحديد مُسَوَّمين لا نرى منهم إلا الحَدَق.

لكن الفرس تراجعوا دون قتال، وغنم المسلمون أموالهم. وسألهم المسلمون:

"ما الذى هزمكم من غير قتال؟ فقالوا: عَرَّفنا الديادبة أن كميناً لكم قد ظهر وعَلا رَهَجُه! يريدون النساء فى إثارتهن التراب!"(١).

رأى فى اختصار المعجم:

هذا سُدس ما جاء عن البصرة. إن "ياقوت" لا يعرفنا بالاسم، وشكله، أو ضبطه، ولكنه يكتب تاريخ المدينة، وخططها وقراها وما جاء فى ذم البصرة، وما جاء فى مدحها. وكما قال "ياقوت" إن ثمة من يسعده أن يعرف تاريخ البصرة، وثمة من يضيق به؛ وهؤلاء هم طلاب الاختصار.

وعندى أن طلبة الاختصار يستطيعون التوقف عند حدود معينة، كما فعلت أنا خشية الإمْلال، ويستطيع طلاب الثقافة الموسوعية أن يواصلوا القراءة حتى النهاية. والحمد لله أن "المعجم" وصلنا كاملاً، وطبع ونشر كاملاً، ليشكل موسوعة ثقافية ثمينة يزهو بها تراثنا العربى والإسلامى، ويرتفع اسم "ياقوت الحموى" بهذه الموسوعة ليزاحم كبار المؤلفين والمفكرين.

الرؤية الإسلامية عند ياقوت:

كتب "ياقوت" عن "مدينة النحاس"، ويقال لها مدينة الصَّفَر، ولها قصة بعيدة من الصحة، لمفارقتها للعادة، وأنا برىء من عهدتها، إنما أكتب ما وجدته فى الكتب المشهورة التى دوَّنها العقلاء، ومع ذلك فهى مدينة مشهورة الذكر، فلذلك ذكرتُها"(٢).

والحق أنها قصة مدينة وهمية لا وجود لها. والمهم هنا هو أن "ياقوتًا" كذَّبها استناداً إلى "مفارقتها للعادة" - أى قوانين الحياة البشرية، التى تمنع بناء مدينة من النحاس. وهذا هو المبدأ الذى فحص ابن خلدون الأخبار فى ضوئه، وزيف كثيراً منها، وسماه "قواعد العمران".

و"ياقوت" سبق ابن خلدون بمائة واثنتين وثمانين عاماً(٣). ومن ثم يجب أن

---

(١) معجم البلدان؛ جـ ١ ص ٤٣٠-٤٣٢.
(٢) معجم البلدان؛ جـ ٥ ص ٨٠-٨٢.
(٣) ياقوت توفى سنة ٦٢٦هـ وابن خلدون توفى سنة ٨٠٨ هـ.

نُرد فكرة "القوانين الاجتماعية" أو "قوانين العمران" حسب تعبير ابن خلدون، إلى بداية القرن السابع الهجرى على الأقل. وهذا لاينتقص من إبداع ابن خلدون شيئاً، لأن "ياقوتًا" لم يتوقف عند هذه الفكرة ويصغها ويبرزها ويطبقها فى فحص الأخبار، كما فعل ابن خلدون.

وتزييف "ياقوت" لقصة مدينة النحاس يبيِّن التزامه بالرؤية الإسلامية. وهذه الرؤية كانت شائعة بين علماء الحديث الذين أنشأوا "علم الجرح والتعديل" لمواجهة الكذب على رسول الله ﷺ، وكانت مُناقَضَة العقل أو البداهة معياراً لتكذيب الأخبار. وكان "ياقوت" دارساً لعلوم الحديث، ولا بد أنه تأثر بها.

وقد بيَّن الإمام الغزالى رحمه الله صفات الأخبار التى يُعلم كذبها، وهى: ما يُعلم خلافه بضرورة العقل، أو نظره، أو الحس والمشاهدة، أو أخبار التواتر. وبالجملة: ما خالف المعلوم بالمدارك الستة المذكورة، كمن أخبر عن الجمع بين الضدين، وإحياء الموتى . ."[1].

ومعلوم أن الغزالى سبق "ياقوتًا" بأكثر من قرن من الزمان[2]. والأرجح أن "ياقوتًا" قرأ كتاب "المستصفى"، أو اطلع على تقسيم الحديث إلى "ما يجب تصديقه" وإلى "ما يجب تكذيبه" وإلى "ما يجب التوقف فيه". فإنكاره قصة مدينة النحاس مستند إلى هذه القواعد.

سجلماسة:

قال "ياقوت": "سِجلماسَةُ: بكَسْر أوله وثانيه، وسكون اللام، وبعد الألف سين مهملة: مدينة فى جنوب المغرب فى طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهى فى منقطع جبل "دَرَن"، وهى فى وسط رمال كَرمَال "زَرود" ويتصل بها من شماليها جَدَدٌ من الأرض، يمر بها نهر كبير يخاض، وعلى أربعة فراسخ منها رستاق يقال له "تيومتين" على نهرها الجارى فيه من الأعناب الشديدة الحلاوة ما لا يُحد، وفيه ستة عشر صنفاً من التمر، ما بين عجوة ودقَل.. إلخ"[3].

---

(١) المستصفى؛ طبع الجندى؛ ص ١٦٦، ١٦٧.
(٢) توفى الغزالى سنة ٥٠٥ هـ.
(٣) معجم البلدان؛ جـ٣ ص ١٩٢.

هذه المدينة هى نفسها مدينة النحاس الخرافية التى سبق أن أنكرها! وهى نفسها التى أنكرها ابن خلدون، لأن: "الأحوال التى ذكروا عنها كلها مستحيل عادة، مناف للأمور الطبيعية فى بناء المدن واختطاطها، وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف فى الآنية والخرثى (= أثاث البيت). وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد .."(١).

لكن "ياقوتًا" له عذره، لأنه لم يجد فى قصة "سِجلماسة" شيئاً "يفارق العادة"، إذْ لم يرد فيها أنها مبنية من النحاس، كما ورد فى الصيغة الأخرى التى وجدها ابن خلدون عند "البكرى" و "المسعودى". لكن المدينة الوهمية وردت فى الصيغتين باسم "سِجلماسة"، ثم إن الرحالة المسلمين جابوا تلك المناطق على امتداد القرون، ولم يذكروا هذه المدينة البديعة العامرة بخير ولا شر، لأنها لم تكن موجودة فى أى عصر من العصور!

موقفه من الخرافات:

ويعترف "ياقوت" بأنه: "ذَكرَ أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر منها طباعُ مَن له (من العلم) محصول، لبُعدها عن العادات المألوفة، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة، وإن كان لا يُستعظم شىء مع قدرة الخالق وحِيَل المخلوق، وأنا مرتاب بها نافر عنها، مُتَبَرِّئٌ إلى قارئها من صحتها، لأننى كتبتها حرصاً على إحراز الفوائد، وطلباً لتحصيل القلائد منها والفرائد. فإن كانت حقًّا فقد أخذنا منها بنصيب المصيب، وإن كانت باطلاً فلها فى الحق شرط ونصيب، لأننى نقلتها كما وجدتها، فأنا صادق فى إيرادها كما أوردتْها"(٢).

هنا لا بد أن نختلف مع هذا العالم الكبير. فإذا أدرك أن قولاً ما يأباه العقل وينفر منه الطبع، لبعده عن العادات المألوفة، وجب عليه أن يتركه. ولكنه يسوِّغ خطأه بالحرص على إحراز الفوائد! فأية فوائد تلك التى تأتى من الخرافات والأباطيل المنافية

---

(١) مقدمة ابن خلدون؛ طبعة الشعب؛ ص ٣٤.
(٢) معجم البلدان؛ جـ ١ ص ١٢.

للبدهيات والمشاهدات؟ لا فائدة ولا عائدة منها إلا تضليل المسلمين. ولا عذر له بالقول أنه أوردها كما وردت إليه. فالعالم المسلم يفحص ويفرز، ولا يسمح لقلمه بأن يكون جسراً للأباطيل. و"ياقوت" مارس هذا الفحص أحياناً، لكنه هجره أحياناً، وبذلك خالف الرؤية الإسلامية التى تُشدد فى طلب الحقائق واجتناب الأباطيل.

ثم يدافع "ياقوت" عن لين موقفه بتذكيرنا ببعض الحفاظ الذين لم يشترطوا إيراد الأحاديث الصحيحة دون غيرها. لكنه نسى أنهم حرصوا على تخريج الأحاديث وبيان درجة وثاقتها، وما يترتب على ذلك من كشف الروايات الزائفة. وإذا زاد اللّين فى موقف الراوى أو المحدِّث، اعتبر غير ثقة أو كذاباً أو مدلِّساً أو مُنكَر الحديث (على تفاصيل واسعة فى كتب الحديث).

وقد عانت الأمة المسلمة من الأخبار الزائفة التى سجلها بعض المؤلفين القدامى. فوجود خبر ما فى كتاب معتبر فى التفسير أو الحديث يضمن له القبول لدى المسلمين، ويصبح من العسير تزييفه وملاحقته بالإبطال لدى الملايين من الناس. وأبسط الردود أن يقول القائل: هذا موجود فى تفسير الطبرى مثلاً؛ أو هذا أورده "ياقوت" فى المعجم!

الأمانة العلمية:

وتتمثل الرؤية الإسلامية بوضوح فى اعتراف "ياقوت" بفضل المؤلفين السابقين الذين استفاد منهم. ولقد عبر "ياقوت" عن استيائه الشديد حين اكتشف أن أبا بكر محمد بن موسى الحازمى قد اختلس كتاب أبى الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندرى النحوى فى "ما ائتلف واختلف من أسماء البقاع"، والكتاب ليس من تأليفه، بل من تأليف: "رجل ضابط قد أنفد فى تحصيله عمراً وأحسن فيه عيناً وأثراً" ادعاه الحازمى لنفسه: "واستجهل الرواة فرواه، ولقد كنت عند وقوفى على كتابه أرفع قدْرَه من علمه، وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه، إلى أن كشف الله عن خَبيئَته، وتمحَّض المحْضُ عن زُبدته. فأما أنا فكل ما نقلته من كتاب "نصر بن عبد الرحمن"

فقد نَسَبتُه إليه، ولم أُضِعْ نَصَبَه، ولا أخْمَلْتُ ذِكْرَه وتعبَه، واللهُ يثيبه ويرحمه"(١).

فالمؤلف الجغرافى المسلم يستفيد من السابقين دون حرج. لكنه يبيِّن للقارئ ما نقله ويميزه مما حصله بنفسه. ولسوف نرى هذا المبدأ العلمى والأخلاقى واضحاً لدى العلماء المسلمين فى فروع العلم المختلفة. وربما كانت سيرة ابن هشام أبرز مثال لذلك، إذْ وجدناه يكرر ذِكْرَ محمد بن إسحاق الذى أخذ عنه.

نسأل الله تعالى أن يجزى ياقوتاً خير الجزاء على ما أسداه لأمته وللإنسانية من علم ومعرفة وثقافة، إنه سبحانه سميع مجيب.

* * *

(١) معجم البلدان؛ جـ ١ ص ١١ .

obeikandl.com

● الأنموذج السادس :
اليعْقُوبى

حياته :

هو أحمد بن أبى يعقوب اليعقوبى[1]. جغرافى مسلم، ومؤرخ. قام برحلات فى أرمينيا وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب، ودوَّن مشاهداته فى كتابه "البلدان" الذى ندرسه هنا. وله كتاب فى التاريخ يوافق رواية الطبرى.

ولم يكتب شيئاً عن حياته الشخصية أو نشأته وأسرته.

أغرم بعلم تقويم البلدان منذ كان شاباً. وسافر كثيراً فى أرجاء العالم الإسلامى، لكى يستطيع أن يؤلف كتابه المذكور، وانتهى به المطاف إلى بغداد حيث كانت وفاته. رحمه الله وجزاه عن أمته المسلمة خير الجزاء.

مقدمة

ويقول اليعقوبى : "إنى عُنيت فى عنفوان شبابى، وعند احتيال سنى، وحدَّة ذهنى، بعلم أخبار البلدان، ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأنى سافرت حديث السن، واتصلت أسفارى، ودام تغريبى، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره، فإذا ذكر لى محلَّ داره وموضع قراره، سألته عن بلده ذلك .. وزرعه ما هو ؟ وساكنيه من هم من عرب أو عجم؟ .. وشُرْب أهله ؟ حتى أساله عن لباسهم ... وديانـاتهم ومقالاتهم والغالبين عليه ... ومسافة ذلك البلد، وما يقرب منه من البلدان .. والرواحل، ثم أثبتُ كل ما يخبرنى به من أثق بصدقه، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم، حتى سألت قوماً كثيراً. وعالماً من الناس – فى الموسم وغير الموسم (موسم الحج) – من أهل المشرق والمغرب، وكتبت أخبارهم، ورويت أحاديثهم،

---

(١) توفى سنة ٢٨٤هـ – ٨٩٧م فى بغداد.

وذكرت من فتح بلداً بلداً، وجنَّد مصراً مصراً من الخلفاء والأمراء، ومبلغ خراجه، وما يرتفع من أمواله. فلم أزل أكتب هذه الأخبار وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلاً، وأضيف كل خبر إلى بلده، وكل ما أسمع من ثُقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته"(١).

الجغرافيا والتاريخ والسياسة فى "البلدان":

تختلط الجغرافيا بالتاريخ بالسياسة فى كتاب "البلدان" لليعقوبى. فهو حين يتحدث عن "بغداد" يبالغ فى تعظيم كل شىء، ثم يرى لذلك نتائج لا يمكن أن نوافقه عليها. ويفسر هذا أنه كان من موظفى الدولة(٢).

فهو يقول إنه باعتدال هواء بغداد: "وطيب الثرى وعذوبة الماء، حَسُنت أخلاق أهلها ونَضُرت وجوههم وانفتقت أذهانهم، حتى فضلوا الناس فى العلم والفهم والأدب والنظر والتمييز، والتجارات والصناعات والمكاسب، والحذق بكل مُناظرة وإحكام كل مهنة، وإتقان كل صنعة. فليس عالم أعلم من علمائهم ولا أرْوَى من راويتهم، ولا أجْدَل من متكلمهم، ولا أعرب من نحويهم ولا أصلح من قارئهم ولا أمهر من مُتَطَبِّبهم، ولا أحذَق من مغنيهم ولا ألطف من صانعهم ولا أكْتَبَ من كاتبهم ولا أبْيَن من مَنْطِقِيِّهم، ولا أعْبَد من عابدهم ولا أوْرَعَ من زاهدهم ولا أفقه من حاكمهم ولا أخطب من خطيبهم ولا أشعر من شاعرهم ولا أفْتَكَ من ماجنهم"(٣).

ولا علاقة بين طيب الثرى وعذوبة الماء وحُسْن الأخلاق ونضارة الوجوه، وانفتاق الذهن. وتفضيل أهل بغداد على سائر البشر بأحكام عامة كهذه غير مقبول. ففى كل شعب ومدينة وقبيلة العالم والجاهل وحَسَنُ الخلق وسيئه؛ وتعميم الأحكام فى هذه القدرات والمواهب ليس له أساس من الصحة.

---

(١) أحمد بن أبى يعقوب (اليعقوبى)؛ البلدان؛ ص ٩.

(٢) كتاب البلدان؛ ص ٢٣٥ (ضمن مجلد واحد مع الأعلاق النفيسة لابن رسته؛ طبع ليدن؛ سنة ١٨٩٣م).

(٣) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الأدب الجغرافى العربى؛ ص ١٥٨.

ويقول اليعقوبى : "فلما أفضت الخلافة إلى بنى عم رسول الله (وآله من ولد العباس بن عبد المطلب)، عرفوا بحسن تمييزهم وصحة عقولهم وكمال آرائهم فضل العراق وجلالتها وسعتها ووسطها للدنيا، وأنها ليست كالشام الوَبيَّة الهواء الضيقة المنازل الحزنة الأرض المتصلة الطَّواعين، الجافية الأهل، ولا كمصر المتغيرة الهواء الكثيرة الوباء التى إنما هى بين بحر رَطب عفنٍ كثير البخارات، الرَّديَّة التى تولد الأدواء وتفسد الغذاء، وبين الجبل اليابس الصَّلْد الذى – لِيَبَسه وملوحته وفساده – لا ينبت فيه خَضِر، ولا ينفجر منه عين ماء، ولا كإفريقية (تونس) البعيدة عن جزيرة الإسلام ... ولا كالحجاز النَّكْدَة المعاش الضيقة المكسب التى قوت أهلها من غيرها .."(١).

تعقيب :

ومن الجلى أن اليعقوبى يقلب الحقائق رأساً على عقب، وراح يذم البلاد المسلمة كلها بما ليس فيها، ويمتدح العراق بما فيه وبما ليس فيه. وهذه شعوبية لا نرتضيها لأمثاله.

وهذا هو الاستثناء من القاعدة التى رأيناها لدى الجغرافيين العرب والمسلمين، والتى تلزم الباحثين بتحرى الحقائق والوقوف عندها، بوصفها الغاية القصوى للعلوم الإسلامية ، ولأن الإسلام نفسه يُوجب قول الحق بصرف النظر عن المستفيد والمُضَار منه، وبصرف النظر عن القوميات والعصبيات والقبائل والبطون.

ويقول اليعقوبى : "وأحصيت الدروب والسكك (فى بغداد) فكانت ستة آلاف درب وسكة، وأحصيت المساجد فكانت ثلاثين ألف مسجد، سوى ما زاد بعد ذلك. وأحصيت الحمَّامات فكانت عشرة آلاف حمام سوى ما زاد بعد ذلك"(٢).

ومعلوم أن اليعقوبى توفى سنة ٢٨٤هـ. فالإحصاءات السابقة خاصة ببغداد فى نهاية القرن الثالث الهجرى.

---

(١) كتاب البلدان؛ ص ٢٣٦ .
(٢) نفسه؛ ص ٢٥٠ .

وليس فى بغداد اليوم ذلك العدد المهول من المساجد.

وعلى عكس اليعقوبى راح جماعة من الشعراء والكتاب يذمون بغداد! قال ياقوت الحموى: "وعلتهم فى الكراهية ما عاينوه بها من الفجور والظلم والعسف"(١).

والحق أن الفجور والظلم والعسف فى كل مكان، كما أن الصلاح والعدل فى كل مكان. ونحن المسلمين نرفض الزيف والتعميم مدحاً أو قدحاً. وكل بلد مسلم وطننا نحبه ونجله ونبرز مزاياه وفضله، دون أن يورطنا ذلك فى ذم غيره. والضرر يصيب العالم - الجغرافى وغير الجغرافى - من إخضاع الجغرافيا للسياسة، أما خلط الجغرافيا باللغة والأدب والتاريخ والدين والثقافة فقد يسبب صعوبات كثيرة، لكنه لا يحيف على الحقائق الجغرافية. ولو أننا قارنا بين "بغداد" اليعقوبى و"بغداد" ياقوت الحموى لأدركنا الأضرار من "كتابة الجغرافيا لأجل السياسة"، والفوائد من ربطها بالبيئة التاريخية. غير أن هذه المقارنة تبعدنا عن غايتنا من هذا البحث، فلا نخوض فيها.

وصف الرحلة من الكوفة إلى الحجاز:

ووصف اليعقوبى الرحلة من الكوفة إلى الحجاز - إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة - وصفاً أعاد به بناء الطرق التى سار فيها، والقبائل التى لقيها، ومنازلهم، ومواقعهم؛ حتى إذا بلغ المدينة شرع يصور أرضها وأوديتها، وجبالها، وآبارها، وعيونها، وأهليها، وزروعها، وما جاورها، فإذا تأملت وصفه شعرت أنك تمسك بصورة فوتوغرافية أو لوحات فنية لتلك الأماكن فى القرن الثالث الهجرى. وبهذا الجهد العلمى الفائق، أسدى اليعقوبى للأمة المسلمة خدمة جليلة، لأنه حفظ لها قطعة عزيزة من حياتها وصورة تذكارية مشرقة لأسلافها.

قال اليعقوبى: "من أراد أن يخرج من الكوفة إلى الحجاز، خرج على سمْت

---

(١) معجم البلدان؛ جـ ١ ص ٤٦٤ - مادة بغداد.

القبلة فى منازل عامرة ومناهل قائمة، فيها قصور لخلفاء بنى هاشم. فأول المنازل: القادسية، ثم المغيثة، ثم القرعاء، ثم واقصة، ثم العقبة، ثم القاع، ثم زبالة، ثم الشقوق، ثم بطان – وهى قبر العبادى. وهذه الأربعة الأماكن ديار بنى أسد والثعلبية. وهى مدينة عليها سور وزرود. والأجفر منازل طيِّئ، ثم مدينة فَيْد – وهى المدينة التى ينزلها عمال طريق مكة. وأهلها طيِّئ. وهى فى سفح جبلهم المعروف بـ "سلْمى". وتوز وهى منازل طيِّئ؛ وسميراء والحاجر وأهلهما قيس، وأكثرهم بنو عبس. والنقرة ومعدن النقرة وأهلها أخلاط من قيس وغيرهم، ومنها يعطف من أراد مدينة رسول الله ﷺ على بطن نخل. ومن قصَدَ مكة فإلى مغيثة الماوان – وهى ديار محارب، ثم الربذة، ثم السليلة، ثم العمق، ثم معدن بنى سليم، ثم أفيعية، ثم المسلح، ثم غمرة ومنها يهل بالحج، ثم ذات عرق، ثم بستان ابن عامر، ثم مكة"(١).

ومن الجلى أن اليعقوبى قصد مساعدة الحجاج ووضع كتابه كمرشد بين أيديهم. لكنه ترك لنا ثروة من الجغرافيا الوصفية تيسر لنا مرافقة الحجاج على بعد الزمان والمكان، فيشقينا السفر، وتخفف عنا المنازل المتوالية وعثاءه.

جغرافيا الطيب والعطور:

وامتدت اهتمامات اليعقوبى إلى مجال الجغرافيا المعدنية والنباتية، وخاصة مصادر العطور والطيب، مثل: المسك والعنبر والعود والسنبل والقرنفل والغوالى والسك والبان.

قال اليعقوبى: "ذكر لى جماعة من العلماء بمعدن المسك أن معادنه بأرض التبت وغيرها معروفة. وقد ابتَنَى الجلابون فيها بناء يشبه المنار فى طول عظم الذراع، فتأتى هذه البهيمة التى من سررها يتكون المسك، فتحك سررها بتلك المنار، فتسقط السرر هنالك، فيأتى إليه الجلابون فى وقت من السنة قد عرفوه، فيلتقطون ذلك، مباحاً لهم؛ فإذا وردوا به إلى التبت عُشِّر عليهم .. وأفضل المسك ما كان يرعى غزلانه

---

(١) البلدان؛ ص ١٥٠.

حشيشاً يقال له (الكدهمس)، ينبت بالتبت وقشمير أو بأحدهما." وقال: "أفضل المسك التبتى، ثم المسك السغدى، وبعد السغدى المسك الصينى.."

والمسك الهندى بعده، ثم المسك الطغرغرى، ثم المسك القصارى، وذكر أنواعاً أخرى من المسك[1].

وقال إن "العنبر": "أنواع كثيرة وأصناف مختلفة. ومعادنه متباينة. وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره. فأجود أنواعه وأرفعه وأفضله وأحسنه لوناً وأصفاه جوهراً، وأغلاه قيمة، العنبر الشحرى، وهو ما قذفه بحر الهند إلى ساحل الشحر من أرض اليمن.."[2].

ووصف "العود" فقال إن للعود القمارى سن نضيج الماء .. وبعد العود القافلى العود الصنفى، ويجلب من بلد يقال له الصنف بناحية الصين، وبينه وبين الصين جبل لا يُسلك. وهو أجَلُّ الأعواد وأبقاها فى الثياب.."[3].

ثم وصف العود الذى يسمى "القشور" و"القطعى" و"المتطاوى". ووصف "السنبل الهندى" و "القرنفل" و"الغوالى" الذى كان يعمل للخلفاء والملوك والأكابر، ووصف "البان" و"ماء التفاح" الذى يؤخذ من التفاح الشامى. وآخر ما وصف من هذه العطور الثمينة "حب إزالة البخر"[4].

وهذه الاهتمامات الجغرافية تشير إلى مجتمعات الرفاهية التى عاشت فى القرن الثالث الهجرى، حيث كانت الدولة العباسية فى قمة عظمتها. والجغرافى المسلم يستجيب لحاجات مجتمعه من الكماليات، وقد رأى التجارة تنشط فى مجال الطيب والعطور، فوضع الصورة أمام أعين الأجيال التالية من قراء كتابه، لكى تتم الصورة وتزهو وتبهر كل من أسعده الحظ وقرأ "كتاب البلدان" لهذا الجغرافى المسلم. ولو أنه

(١، ٢) البلدان ؛ ص ٢٠٨-٢١٠ .
(٣) نفسه؛ ص ٢١١-٢١٢ .
(٤) نفسه؛ ص ٢١٤-٢١٥

أغفل "جغرافيا العطور والطيب" لانتقص من الصورة الحية لتلك البلدان، وغابت عنها هذه اللمسة الجمالية الباهرة. فهو الصدق والحق إذن - وهى الرؤية الإسلامية لهذا العلم الإسلامى الأصيل: "علم تقويم البلدان".

نسأل الله تعالى أن يثيب اليعقوبى على ما أصاب من الحق، وأن يتجاوز عما أصاب من أخطاء، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

* * *

obeikandl.com